الظرائف

من أخبار الأعراب

تميم بن المعز الصنهاجي

أبو القاسم الفزاري

علي بن الإيادي

Bibliotheca Alexandrina
0402699

على دب

عبد الجبار الشريف

الدار التونسية للنشر

طرائف الأدب العربي

من تراث الشعر الشعبي

تميم بن المعز الصنهاجي
أبو القاسم الفزاري
علي بن الإيادي

عبد الجبار الشريف
علي دب

الشركة التونسية للتوزيع

جميع الحقوق محفوظة
© الشركة التونسية للتوزيع
5 شارع قرطاج – تونس- 1982

المقدّمة

هذه السلسلة من « التراجم الأدبية »

حين فكرنا في كتابتها كانت أمامنا جملة من الأسباب والرؤى تدعونا جميعها إلى تذكير الأجيال بأدباء لاقوا من الإنكار والإهمال ما جعلهم يتألمون وتتصاعد النقمة فيهم ، لمجتمع أعطوه الفكر والثقافة فجازاهم بالتحقير والنسيان ...

هذه المعاناة النفسية أثرت على المردود الأدبي وبدلا من الابتكار والخلق والتعبير عن الخصوصية الذاتية داخل شخصية الأمة العربية ، بدلا من هذا كله بادروا إلى المحاكاة والتّقليد لا عن اقتناع ولكن إرضاء لمجتمع رفض الإبداع وأوحى لمفكريه بالاجترار والسير في الطرقات المعبدة ...

ونحن حين كتبنا هذه السلسلة لم تغب على أذهاننا حقيقة الصراع والمركبات النفسية التي فرضت على أدباء تلك الحقبة ولم تتح لبعضهم الظروف المادية والمعنوية ومختلف قوى الصراع حتى الاصداع بما يحسون به وينطلعون اليه ... لهذا رأينا ازدهار النقد والتنظير وصفاء ملكة الذوق لكن لم يصاحب هذا جودة في الإبداع تواكب الطموحات ...

ومع ذلك ورغم كل شيء كانوا صورا لعصورهم ولو أن بعضها مهزوزة أو غير متكاملة أو أشعرتك بألوان أخرى وسمات

معروفة ... هذه الصفوة من الأدباء ملؤوا أزمنتهم بحق وإن لم ينصفوا بالتعريف والتقييم ... وتلك عادة سيئة ما زلنا نعاني من مخلفاتها اذ نطلب ما عند غيرنا بالحاح وننسى أننا نساهم اذا أردنا في إثـراء ثقافتنا العربيـة وهي لم تكن ثرية وغنية الا بروافدها الكثيرة . وتناست أجيالنا المتعاقبة أننا بعض تلك الروافد وان من ينفق من تراثه وحضارته بدون إضافة سرعـان ما يجد نفسه يعيش حالة الكفاف والتقتير والتبعية . وفعـلا بادرنا الى اتهام أدبنا بالضحالة والتقليد عوضا عن تقييـم التجارب وعمن يتحمل المسـؤولية ... ولـم نقل مع القائليـن لا كرامة لنبي في قومه ، ولكننا بادرنا باصدار هذا الجهد المبسط لادباء بقيت أسماؤهم كبيرة على مر العصور ، ولكن الكثيـر من أجيالنا لا تتعدى معارفهم غير الاسماء ، ولا يتصورون عنهم حتى معلومات وجيزة تخبرهم بأهم السمات الفكرية لاولئـك الأدبـاء ... لا نبالغ في اطراء هذه السلسلة فهي تبقى في طور المحاولة والتعريف وهي مهما كانت طموحاتنا تبقى في مرتبة الاضافة لما كتب من الذين سبقونا ... وإن كان لنا من فضل فهو توخي المعلومات الدقيقة واثبات المراجع التي اعتمدنا عليها ولا مزية لنا في ذلك ولكن الأمـانة العلمية وأصول البحث الجديدة جعلتنا نفيد بقـدر ما نستفيد .

ونأمل أن نجد من الوقت والتشجيع ما يدفعنا لمواصلة هذا الجهد وتعميم التجربة لتشمـل الأدب المنسي عبر العصور ولتسحب التجربة حتى على أجيالنا الحالية وهي ما زالت تعاني

مما عانى منه القدماء فالشكوى واحدة «والبلية متصلة» وإن تبـــاعد مـــا بين الأجيال

علي دب وعبد الجبار الشريف

رادس في 24 ـ 6 ـ 80

To: www.al-mostafa.com

تميم بن المعز الصنهاجي

أصح وأعلى ما سمعنا عن الندى عن الخبر المأثور منذ قديم
أحاديث ترويها السيول عن الحيا عن البحر عن كف الأمير تميم

هذا المقطع من قصيدة لابن رشيق مدح بها «تميم» بن المعز الصنهاجي (+).

وان قبلنا هذه الصفات بتحفظ، وحذرنا من تزيدات الشعراء ذات النزعات المادية والدوافع التكسّبية، فإن التاريخ ـ والتاريخ أنصف حكم ـ يؤكد لنا كرم تميم وعطفه على الأدباء والشعراء في عصره وقد شاركهم في الهواية ونازعهم في مكابدة مهنة الأدب، وإن امتاز عليهم بالترف المادي وربما الفني أيضا، فهذا ابن خلكان يثبت أن تميما «كان يجيز الجوائز السنية ويعطي العطاء الجزيل (1)».

(+) تميم بن المعز الصنهاجي هو غير تميم بن المعز الفاطمي فكلاهما شاعر وأمير غير أن الأول عاش في القيروان والمهدية والثاني في مصر وهو ابن المعز لدين الله الفاطمي وله ديوان مطبوع .
(1) وفيات الاعيان لابن خلكان ص /122 .

عصر الشاعر

يمتد العصر الصنهاجي من «973 إلى 1058م» ويعد من أزهى عصور القيروان وأرسخها قدما في السياسة والأدب ، اذ لم تنحصر النهضة الأدبية في عاصمة الدولة وإنما شملت مدينة المهدية العاصمة الثانية وانتقلت إلى مدن القطر الهامة مثل : قفصة وصفاقس وقابس وباجة وتونس (1).

ولربما التجأت أصول هذه النهضة من المشرق- فرارا من جور الحكام - إلى احضان المغرب كبديل للمشرق العربي وقد بدأ ينخر كيانه الضعف وتنهكه التيارات السياسية المتناحرة المتكالبة على الحكم. إزاء هذا الوضع المتأرجح هاجر الكثير من أدباء بغداد إلى الإمارات الأخرى وفيهم من وصل إلى افريقية.

والسبب الثاني : الضعف والتفكك الذي اجتاح الأندلس بعد عصورها الذهبية، والانقسام السرطاني في الإمارات الكثيرة مما جعل بعض الأدباء يعزفون عن الأندلس وينعتون أمراءها بالقطط التي تقلد الأسود أسماءوانتفاشا، وقد وجد هؤلاء الأدباء الاستقرار والقوة في الدولة الصنهاجية الفتية.

---

1) معجمل تاريخ الأدب التونسي ص /104 لحسن حسني عبد الوهاب .

ونحن نؤمن بأن القوة السياسية يواكبها نضج فكري حضاريا وأدبيا، أو بالأحرى الثورة السياسية تصاحبها أو تمهد لها ثورة ثقافية . وإذا وقع خلل أو تنافر بين المقاييس السياسية والانبعاث الأدبي فيرجع ذلك إلى العقم السياسي وتحجر قوالبه ذات النظرة الفوقية ويؤدي هذا التنافر بين السياسة والأدب الى تفكك المجتمع، وتعطل قراه الحية الخلاقة .

غير أن السياسة الصنهاجية لم تنزلق في هذا المنعطف الخطير، منعطف فصل الفكر الثقافي عن السياسي، فآخت بينهما . ولا ننس أن هذا العصر حلقة من حلقات التاريخ التونسي الطويل المليء بالأحداث والمفاجآت، بل والتقلبات التي تبدو أحيانا متشابكة غير مقنعة .

ولا شك أن هذا العصر يستند على أسس ثابتة من العصر الأغلبي والفاطمي التي تعد من عصور الإزدهار التونسي.
والعامل الاقوى في إزدهار الأدب التونسي أثناء العصر الصنهاجي يكمن في الأمراء انفسهم الذين امتازوا بالنضج، والإمكانيات العقلية، والمتانة الثقافية، والتشبع بالروح الوطنية التي تعتبر الأدب خير مقومات الأمة، وأصفى وجه لها . وكتب التاريخ تروي لنا الكثير عن المعز بن باديس وابنه تميم، وكانا من أنضج الحكام الذين تعاقبوا على هذا القطر، وهما بلا منازع أكبر امراء الخلية الصنهاجية .

كان المعز بن باديس كما يثبت ابن خلكان «محبا لأهل العلم، كثير العطاء. مدحه الشعراء وانتجعه الأدباء، حضرته محط الامال...» أما تميم فقد وصفه بأنه «محب للعلماء، معظم لأرباب الفضائل، حتى قصدته الشعراء من الافاق على بعد الدار، كابن السراج الصوري وانظاره. وكان يجيز الجوائز السنية ويعطي العطاء الجزيل (1).

وإذا افتقرت النهضة السياسية إلى انتعاش ثقافي فإن الوعي الثقافي والأدبي خاصة يحتاجان إلى صفاء ونضج في المقاييس النقدية. وبهذا نصل إلى العامل الرابع من عوامل ازدهار الأدب الصنهاجي انطلاقا من المبدأ السليم: النهضة الأدبية بلا نهضة نقدية عرجاء». واكب التفتح الأدبي نقاد اتخذوا المقاييس النقدية دليلا، بعد أن تسلط الذوق الشخصي على الأدب العربي عبر أحقابه التاريخية الطويلة، ومازلنا نعتز بكتاب «الممتع للنهشلي» و «العمدة لابن رشيق و «رسائل الإنتقاد لابن شرف» وكلها ألفت في هذا العصر.

ولربما يضاف إلى كل هذا وضوح المدارس الأدبية المشرقية والمغربية. وهكذا تظافرت العوامل الخارجية مع العوامل الداخلية لتجعل من العهد الصنهاجي عهد ازدهار أدبي وانبعاث ثقافي. في حراسة حس أدبي وعلمي نزيه، ورعاية أمراء جمعوا بين السياسة والأدب. فمن غير المستغرب أن يسمو هذا العصر أدبيا كما سما سياسيا، لانه يستند إلى جذور أصلية وثابتة.

---

1) «وفيات الاعيان لابن خلكان ص /122.

البيئة الخاصة وأسلوب حياته

تربى في قصور الملك بالمنصورية تربية خاصة كغيره من أبناء الأمراء الذين يولدون مع هالات الاستبشار والفرح. فهم الملوك الصغار، وساسة البلاد المنتظرون، يترعرعون في نعيم متنام لا ينضب، وسط التدليل والتطبيل، ويموتون مشيعين بآلاف الأعين والأذرع.

وقّر المعز بن باديس لابنه مناخا أدبيا وفكريا جمع فيه بين التعليم الخاص وحضور المجالس العامة والمنافرات الأدبية والعلمية التي يزخر بها بلاط هذا الأمير، وقد ضم إليه أدباء هذا العصر، وزرع بينهم الخصومات الأدبية، فكان يقرب هذا ليقصي ذاك، ثم ما يلبث أن يعيده، فيستميت الغالب والمغلوب في الظفر بحظوة الأمير، والاستحواذ على صلاته. وكان ابن رشيق وابن شرف فرسي الرهان يضاف إليهما أبو الحسن الحصري وابن أبي الرجال وغيرهم من أدباء العصر. ولكل هذا تأثير على تكوين الشاعر، وتأثر بما يدور حوله من التقليد إلى الاعجاب. ولما بلغ الثالثة والعشرين ولاه على المهدية، لكن الزحفة الهلالية المدمرة عصفت بملك الأب وحطمت القيروان عاصمته المحببة. وأظهر

المعز تساهلا في إدخال الاعراب واستقبال أعيانهم، ممّا مكنهم من تحطيم ملكه، وكان رأي تميم أن يجابههم المعز بالقوة، وان لا يظهر لهم اللين ويحتضنهم بحفاوة الاستقبال، فحدث بين الأب والابن ـ كما يقول الدكتور حسين مؤنس : «جفوة خفيفة (1)» غير أن المعز إلتجأ إلى ابنه السند الأخير بالمهدية بعد خراب القيروان سنة 444 هـ. فأكرم مثواه وإن لم يمكنه من مقاليد الحكم وهذا يثبت الرأي القائل بحدوث الجفوة بين الابن وأبيه ولربما انغرس في ذهن الشاب مزيج من الألم وقلة الثقة في قيادة الأب الشيخ، خاصة بعد الفشل الذي أظهره في حروبه مع الهلاليين، إذ تغلب عليه شذاذ الاعراب المرتزقة بـ30 ألفا وهو يعد ثمانين ألفا. ونزعة التملك التي تستحوذ على مشاعر الإنسان وتزين له حب السلطة، هي التي سممت العلاقة بين الابن وأبيه ـ على ما نعتقد ـ والاّ كيف نفسر هذا الاستياء المفتعل من الابن؟ ألا تكون خيوط الشك عملت مفعولها في ذهن تميم، فحذر من أبيه على إمارة المهدية وقد إستأثر بها كشاهد أخير يحكي مجد الأجداد، ويقبع داخل أسوارها ليحفظ ما تبقى من العائلة المالكة؟. ونحن نلجأ إلى هذا الاعتقاد مستندين على المصادر التي تشيد بسياسة المعز، فكيف يسخط الابن على سياسة فشلت مرة ونجحت مرات، وشهادة الاعداء خير دليل وأصدق حكم في كل الظروف. فهذا علي ابن رزق الرياحي أحد الاعراب الذين غزوا إفريقية يسجل الوقائع في قصيد طويل :

---

1) هامش الحلة السيراء تحقيق الدكتور حسين مؤنس ص /22.

الا طرقتنا من أميم خيـــــال وايدي المطـايا بالذميل عجال

ويشير إلى المعز بن باديس بكل إحترام وتقدير :

وأما ابن باديس لاحزم مالك ولكن لعمري ما لديه رجال

ثلاثة آلاف لنا غلبت لـــه ثمانين ألفا إن ذا لنكال (1)

كيف نفسر اعتراف العدو، وهل لنا أن ننزه نية الابن المنطوية على الحسرة والانخذال مع التمسك بالمهدية الاثر الباقي وعدم التفريط فيها حتى لولي نعمته ؟ المهم أن «تميم» عاش ازمة تأنيب الضمير، وتفاعلت في كيانه عملية الأبوة والواجب مع حب الملك والمصلحة الآنية، فلم يعنف الأب، ولم يمكنه في نفس الوقت من حقه الشرعي، وما أشبه هذا التصرف المأسوي في عملية الإزاحة التلقائية بانقلاب فني هيأت مسرحه الظروف وأملته نزوة الحكم فاشتدت المحنة على المعز المهزوم داخليا وخارجيا حتى توفي. » وبعد وفاة المعز صار تميم» أميرا حقيقيا فملك افريقية وما ولاها بعد أبيه وكان حسن السيرة محمود الأثار (2) ».

ونود أن ننقل فقرة طريفة كتبها المؤرخ ابن عذاري المراكشي في بيانه المغرب، وكان غربيا حقا في ما رواه عن حياة تميم الخاصة وتصرفاته العجيبة في نظام عيشه : « كان جميلا وسيما، مديد القامة، دري اللون، أشم أبلج ، وكان يكثر من استفراغ بدنه، ويرى بذلك تتمة صحته، فيستعمل كل حار

---

1) الحلل السندسية في الأخبار التونسية القسم الرابع ص 945 ـ الوزير السراج

2) البيان المغرب لابن عذارى المراكشي ص /437 .

من الأدويـــة والأغـــذية ، ويكثـــر من الاصطـــلاء بالنار، ويدخل الحمام الحار ، ويكثر الجماع وشرب الأدوية المقوية كالمحمودة وغيرها، ويجاوز في ذلك المقدار، حتى جف لحمه وفســـدت حركاته الطبيعيـــة واقعد ثم مـــات سنة 501هـ فكان عمره 79 عاما وولايته من يوم وفاة أبيه 46 سنة وخلف من الأولاد الذكور ما جاوز عددهم المائة (1)».

ورغم النزعة الاسطورية التي تسيطر على بعض الجوانب في هذه الفقرة ، فإننا نريد أن نسلط عليها بعض الاضواء، علّها تسهم في الالمام بشخصية الشاعر الخفية .. فنحن لا نرفض هذه الاخبار من الأساس. بل نحاول تعليل التصرفات، وقد وجدنا في «المؤنس» إشارة إلى هذه الأخبار، غير ان ابن أبي دينار لم يورط نفسه بروايتها تحاشيا للمبالغة، أما نحن فلم نلاحظ اختلافا كبيرا بين مزاج الشاعر وهذه التربية الالزامية التي حاول ترويض نفسه بها .

1 ــ ان هذا الأسلوب القاسي الذي ارتأه «تميم» ما هو إلا عملية رد فعل للنعمة والبذخ الغارق فيهما، ولعلها ردة نفسية بعد أن شعر بواقع بلاده الذي يتطلب الحزم والعزم، ولربما أعطته زحفة الهلاليين درسا عمليا، فاثبتت له أن النعمة لا تدوم . ونمط الحياة الجديدة محاولة لسبر النفس، وحملها على المكاره التي تترصد الأمراء والملوك وهذا الأسلوب طالما عود

---

1) نفس المرجع .

الملوك أبناءهم عليه كنوع من التربية الاسبرطية تحسبا للطوارىء وتقلبات الملك فنزعات القسوة لا يخلو منها عصر مهما كان استقراره، وشبحها يخيف كل أمير .

2 ـ يثبت هذا الاتجاه في التربية والتداوي ميل «تميم» لأسلوب حياة العوام الذين يزعمون أن الدواء الكريه يزيل الداء المتمكن، وينفرون تبعا لهذا من كل دواءمستساغ حلو الطعم، لخلوه من حصانة العنف المكتسح لكل داء مستـــوطن

3 ـ استفراغ الشاعر لبدنه القوي المكتنز واستهلاكه لقواه صفة امتاز بها حتى في محاربته الاعداء المتكالبين على ملكه ففي الموسوعة الاسلامية :«أن تميما أظهر مقدرة عجيبة في الأوقات العصيبة التي كانت تحيط به عند إعتلائه العرش، وتجهز في المهدية التي بقيت له من كل املاكه لاستعادة مدن افريقية بعد أن استقل بها ولاتها ...(1)»

وتظافرت الأزمات على الشاعر الأمير : » ففي أيامه كانت المجاعة الكبرى بافريقية، والوباء الذي لم يسمع بمثله (484ه)، وقد قضى أغلب أوقاته مقاوما فيها الثورات التي كانت من بني عمه ومن العرب (2)». اذاً فقد اظهرت هذه التربية جدواها، وأتت أكلها إبّان الحاجة . هذه بعض الملامح عن شخصية الشاعر الأمير ونظام حياته، فما هو إنعكاس هذه الحياة في شعره...؟

---

1) الموسوعة الاسلامية مادة تميم ص 437 .

2) المؤنس في أخبار افريقيا وتونس لابن أبي دينار ص /85 .

الشعر وحياة القصر

كانت المنابع الثرة لشعر تميم بعيدة عن جو السياسة والحكم وأبهة الملك، وقريبة من الحياة الناعمة الدافئة، وسط ثراء القصور وبهارج الحضارة، هذه هي السمة البارزة لشعره شعر ارسطقراطي مترف في أشكاله ومعانيه، لا ينمو إلا في ظلال القصور واكناف حدائقه الخضر، مع الحان القيان وزخات الخمر وأصوات الجواري. فالشاعر ابن بار لبيئته الخاصة، وشعره صدى لعيشته المنعمة.

الخمر والغزل خطان متكاملان لفن الشاعر طغيا على بقية أغراضه. وما ذا غير اللهو والحب لأمير مترف اجتمعت لديه كل وسائل الدعة والرفاه مع الشباب المتمرد. ولعل هذا المفهوم للشعر من ألصق المفاهيم بحياة الشاعر، خلجات نفسانية تدغدغ كيانه العابث المنطلق وراء المتعة. وماذا ننتظر من شاعر أمير؟ أننتظر صدى الكادحين وانات الضعفاء، أم صرخات الفقر والتسول؟ هذا هو مضمون شعر الشاعر، أما شكله فلم يكن أقل رقة من ضحكات جواريه، وهمسات أوتار عيدانه، ولون خمرته في لياليه الصاخبة، وخمريات تميم تذكرنا بخمريات أبي نواس، بل تكاد تكون صورة مصغرة من هاته الخمريات، عشق الخمرة وأحبها فوصف جزئياتها، وتفنن بمجالسها. أحبها كالنواسي حباً ماديا لا صوفية فيه، ولا روحية ولا مواربة أو تستر، انه الأمير الشاعر الآمر الناهي:

لا أبالي اذا شربت ثـلاثـا أي قاض بالجور يقضي عليا(1)

فلسفة الشاعر واضحة : المادية البحتة ، والتمتع بما وفر الله ، وأفاء عليه ، فالعيش عنده كما هو عند النواسي ، خمرة وقيان ، ودندنة أوتار :

قـم يا نديمي ها تهـا حمراء ترمي بالشـرر (2)
ما العيش الا بالسـلام وبالقيـان وبالوتـر

وإذا عزف النواسي على الوقوف بالاطلال، و وصف النساء ، وجعل صفاته لابنة الكرم، فان عيش تميم قصره على المدام ، وأصوات الجواري والقيان التي تؤلف مجموعة صوتية متجانسة مع بعضها ، تضيء الليل وتقصر أبعاده المملة :

ما العيش الا مع التهجيد والدلج أو المدام وصوت الطائر الهزج(3)
والشرب بين الغواني والقيان معا فان أوجهها تغني عن السرج

والخمرة لا تلذ الا من يد جارية قال فيها النواسي :

تسقيك من طرفها خمرا ومن يدها خمرا فمالك من سكرين من بـد

وقـال فيهـا تميـم :

وكأساً مثل عين الديك صرفا وماء المزن بالشهد الجني (4).
يطـوف بهـا مليـح ذو دلال مـريض الطرف ذو خلق رضي
شربت على مدامعه مـدامـا كمـاء المزن والمسك الزكي

1) خريدة القصر وجريدة العصر للاصفهاني /186 .
2) نفس المرجع ص /187 .
3) خريدة القصر وجريدة العصر للاصفهاني ص /170 .
4) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لابن بسام ص /186 .

والمرأة نوع من الخمرة عند الشاعر ، بل صنف جيد منها، كل شيء فيها يذكره بالقدح وأنفاس الـــدن . وتتضح مادية الشاعر في التهالك على اللذة والاكثار من استفراغ جسمه بالمعاشرة والجماع (1) كما روى ابن عذارى المراكشي . وكثيرا ما تتساوى الخمرة والمرأة، فيعيش الشاعر وسط شطحات شهوانية لا يميز فيها بينهما ، كل له مغنطيس خاص وجاذبية متميزة ، وكلاهما في حاجة إلى الآخر ، لذلك احتار الشاعـــر في أيهما المسوغ لصاحبه :

وخمـــر قد شربت على وجـــــوه اذا وصفت تجل عن القياس
خدود مثل ورد في ثغـــــــــور كسدر في شعـــور مثل آس

إنها الشهوة العارمة ، والتكالب على المادة واللذة المـــزدوجة التي يملكها ولا يعرف مصدرها الحقيقي، أهي المرأة أم الخمرة، أم تكاملهما الدائم :

وأسقيه من كأسي واشرب فضله فينهل من فيه ومن فيه أمزج
هو الخمـــر الا أنه خمر مرشف يمج به الثغر النقي المفلج

وقل ان نجد قصيدة غزلية لا تقرن بالخمرة، ومن هنائظهر لنا حياة الشاعر الخاصة ، حياة القصر بمتعه وعيشه، حياة حاول سترها عن شعبه ففضحه احساسه الشعري .

اختار تميم الأنماط المحببة في الشعر التي تداعب الوجدان وتفجر الشهوة ، وقلل من الفخر والحروب والغزوات ، لان

---

1) البيان المغرب لابن عذارى ص /347 .

الأمير الشاب يقدم على هذه المعارك كارها، ويخرج منها حامدا الله على السلامة، فكيف يستعيد ذكرياتها الدامية؟ لذلك لا تروى له الا مقطوعات متفرقة في الفخر والحروب لا قيمة لها فنيا. لعل هذا يرهق مزاج الشاعر الملكي المدلل رغم ما اشتهر به من قسوة وسرعة في قمع الثورات، ودراية في مسك مقاليد الحكم التي تداعت في عهد أبيه بالزحف الهلالي المدمر، ولولا المهدية التي اعتصم بها الشاعر لذهب ملك بني زيري، وانزاح عهد الصنهاجيين في تلك الفترة الحرجة من تاريخهم.

والمنتخبات التونسية ـ أو مجمل تاريخ الأدب التونسي ـ تروي للشاعر مقطوعات سياسية هادفة، أما بقية المجاميع فتكاد تهمل هذه الناحية، وتقتصر على الالوان التي ظهرت فيها براعة الشاعر. والالتقاء بين الشاعر وأبي نواس ليس من باب الصدفة أو العفوية التلقائية، بل يظهر لنا انه مدروس ومقصود، فالأمير يعجب بنزعة النواسي.. يعجب بخمرياته التي تجمع إلى الزندقة المحرجة خفة الروح، مما جعله يتغاضى عن هنات أبي نواس، ويغفر له تمرده الدائب ضد الدين والتقاليد لظروف حياته المتعبة، ولأسلوب تربيته الذي لا دخل له فيه، فكانت خمريات أبي نواس مثالا أمام الشاعر يقرأ ويتأثر به، ولربما مر بفترة المحاكاة والتقليد، قبل أن يصل إلى ذلك النضج وجودة الإستيعاب.

وقد ختم أبو نواس حياته اللاهية بتوبة و ورع بعد وصوله سن الشيخوخة وقعوده عن مسارح اللهو، لا لعفة في نفسه التي

ما زالت جائعة لاهفة ، لكن لنذير الموت والخوف من عذاب الآخرة فتوجه إلى ربه السند الأخير بهذا الدعاء الذكي الذي لا يتضرع فيه بقدر ما يحتج :

يا رب ان عظمت ذنوبي كثرة فلقد علمت بأن عفوك أعظم
ان كان لا يرجوك إلاّ محسن فبمن يلوذ ويستجير المجرم

هذه حالة أبي نواس في سنواته الأخيرة : ضعف وشيخوخة ويأس ورجوع إلى الله ، لا لاظهار المسكنة ، بل لطلب نصيبه من الغفران ، اشارة إلى نظرية الجبر والاختيار .

أما تميم بن المعز فقد وصل إلى سن السبعين وهي سن اليأس والتقوقع والانكماش ، وأوهنه المرض كما روى ابن عذارى حيث أصيب بجفاف الأعضاء واستهلاك البدن ، فرجع إلى ربه رجعة أبي نواس كأنه أراد تقليده حتى في التوبة وطلب العفو والغفران ، بل وفي التفعيلة والبحر . إذا كان عذر أبي نواس ان الله مجبر على العفو لان العبد الضعيف لا يملك حتى افعاله ولا ملاذ له الا الله ، فان «تميم» يتمسك بالشهادتين كأنه يشير إلى قول الرسول «ان الله لا يغفر ان يشرك به ويغفر ما دون ذلك . . . فكأن الشهادتين هما جواز المرور للجنة ، وصك الغفران :

فكرت في نار الجحيم وحرها يا ويلتاه ولات حين مناص
فدعوت ربي ان خير وسيلتي يوم المعاد شهادة الاخلاص

البناء الفني

من المؤسف ان لا نطلع للشاعر على قصائد شاملة حتى نناقش بناءه كما حاول صياغته. وكل الذي بين أيدينا مقطوعات قد تطول وقد تقصر إختارها مؤرخو الأدب القدامى. أما الديوان فلم نعثر عليه ولعله لم يطبع إن لم يكن مفقودا، غير أن ابن عذارى يؤكد كبر حجم الديوان وشهرته ناعتا الشاعر بأنه «أحد فحول الشعراء الملوك من ذوي السبق في معانيه وبدائعه حوى فيه الجودة والكثرة، وله ديوان شعر مشهور (1)». واناقة الشاعر قد لا تظهر في لباسه الملكي الثمين فقط، بل تظهر حتى في شعره، وهي أبقى وأخلد. فتميم أنيق العبارات، يحسن الانتقاء، ويمرر كلمات شعره على حاسته الفنية الجيدة. فشعوره بالكلمات هو الذي أضفى على شعره هذا الرونق الخاص الذي لا نجده في عصره: انتقاء الموسيقى، وحضرية المعاني. وأول ظاهرة في شعره تركيزه الواضح على بحور خفيفة اشتهرت بموسيقاها الهادئة في الشعر العربي، وشغف بها شعراء الفترة العباسية باعتبارها لونا من التجديد، لان القدامى لم يحفلوا بها كثيرا: كالمجزوءات،

1) البيان المغرب لابن عذارى ص /436.

والمشطور وبحور الكامل والمتقارب وقد امتازت بتكرار التفعيلة وتجانسها، مما حببها لدى الشعراء وقربها من الأذان الموسيقيّة

ولا شك أن «تميم» اختار هاته البحور لسهولة أدائها لدى الغناء، وهو المغرم بالغناء والموسيقى وأصوات القيان التي تعج بها قصوره.

ولحرص الشاعر على الموسيقى لا يكتفي بالقوافي العادية وإنما يعمد إلى القوافي الوسطية، فلكل تفعيلتين قافية موحدة وهذا النوع من البراعة البديعية سماه الاقدمون ترصيعا، وهو يشبه السجع النثري، غير أنه يصاحب الشعر فقط :

بنبل الجفـــون وسحر العيون ... وميل الغصون كميل الرماح(1)
ولمع الثغور وبيض النحـــور ... وضيق الخصور وجول الوشاح
وورد الخدود وميس القـــدود ... وضم النهود ولثـــم الاقـــاح
وكأس المدام غداة الغمـــام ... يلـــف الغمـــام فراح بـــراح

وقصـــائد الشاعر تعد انموذجا للترصيع في العصر الصنهاجي ويظهر تميم صناعا صائد بديع يحفل باللفظ أكثر منه بالمعنى وقصائده معرض للزخارف البلاغية، وكأننا بالشاعر حرص على التزويق الشكلي ولم ينتبه للمعنى، وعد الأبيات الشعرية معروضات يزدان بها قصره، وقد سبب له هذا ارتباكا وغموضا في المعنى، بل وتكلفا أحيانا، كما يظهر في الأبيات السابقة في «يلف الغمام» لا معنى لها في البيت. و«جول الوشاح» حشر فرضته القافية، والكناية التي تذوقها الشاعر أكثر من المرأة.

---

1) الخريدة للاصفهاني ص /170.

وقد يلجأ الشاعر إلى الغريب جريا وراء القافية متناسيا المعنى :

كان الرحيق بكن العشيـــــق نظام العقيق بجيد الـــرداح

والرداح المرأة الثقيلة الأوراك، والكلمة ظاهرة التكلف وكيف يتأتى وجود امرأة يجول وشاحها خفة ورشاقة وهي مع ذلك ثقيلة الأوراك .

ومن عشق الشاعر للتشابيه نلاحظ العنت المزري في اقتناصه حتى وصل به أحيانا إلى التعسف والتعنت وقلة الذوق، من ذلك تشبيه الريحان والزهور المفتحة برأس الراهبة الشمطـاء، وليتها كانت راهبة . فقد اختار أقبح تشبيه وأبعده على صفاء الذوق، فنحن نشعر بهيبة الدين ووقاره في موضع غير مناسب ونشعر إلى جانب هذا برأس اشمط لا ندري ماذا يوحي للإنسان ؟ .

ومجلس فيه ريحان وفاكهـة تظل تلهو به حينا وتغتبط (1)

كان سوسنه المبيض حين بـدا رأس لراهبـة يبدو بها الشمط

وفرص الشاعر تبدو أحيانا محدودة في اختيار الجيد من التشابيه يكدسها بلا روية، ويجري وراءها كأنها كشف كبير :

وخمر قد شربت على وجـوه إذا وضعت تجـل عن القياس

خـدود مثل ورد في ثغـور كـدر في شعـور مثـل آس

فالمقطع «كـدرٌ في شعور مثل آس» صورة محشورة بقسوة وسط السبيل الدافق من التصنع، لا علاقة لهذا التشبيه بالصورة

---

1) الخريدة للاصفهاني ص /170 .

الأولى التي تمثل الخمرة في أفخر مجالسها، ووجوه النساء في أبهج زينتها. وإذا سلمنا باحمرار الدر فماذا يمثل الشعر بالنسبة للصورة الأولى؟ تشبيه كل هذا بالآس والريحان لا يخلو من التكلف، لم يراع الشاعر فيه إلا حاسة البريق اللفظي الذي أغراه بالانزلاق وسط هذا الإهمال المعنوي، حاول اصطياد المحسنات لكنها صادته وجعلته عبدا يركع تحت قدميها. ولا نستغرب من تميم هذا الميل إلى الزينة اللفظية وهو الأمير الأنيق الذي يحاول تزيين ذهنه بالصور الفنية كما زين قصره بأنواع المتع، إنها الأناقة وحب الجيد.

ولا ننس ذوق العصر الذي كان ينحدر نحو الاعتصام بالقواقع البلاغية في الشرق والغرب: نشأت المقامات والرسائل، وغالى الأدباء في ميولهم البديعية التي أزرت بالأدب العربي، وكانت جناية على الأدب، ومهد زعماء التصنيع والتكلف لهذا العصر من بديع الزمان الهمذاني والخوارزمي، إلى الصاحب بن عباد وابن العميد، فكانوا ارهاصا صادقا لعصر الصنعة المعجوجة، والتكلف الضيق، المحشور في قوالب الالفاظ، وفي عصر تميم نشأت المقامة الحريرية والطريقة الفاضلية في مصر، أنشأها القاضي الفاضل وقد «عنى بأنواع البديع عناية عظيمة وألح على التورية والجناس فوقع في الغموض وتعقد انشاؤه ووافق ظهور طريقته جمودا في الافكار وحدا من الانطلاق الأدبي (1).

1) أدباء العرب في الاعصر العباسية بطرس البستاني ص /425.

غير أن «تميم» لم ينحدر إلى هذا الوحل، لأن شاعريته أبت أن تتضرع فكان شعره ـ رغم الصنعة المبالغ فيها أحيانا ـ ظاهرة جميلة أنيقة الألفاظ مختارة الصور، وهي قريبة من ذوق الشاعر وإحساسه، قريبة من القراء على اختلاف مشاربهم وأهوائهم.

المراجع

1 — وفيات الأعيـــان ..... ابن خلكـــان
2 — هامـش الحلـة السيراء ..... تحقيق حسين مؤنس
3 — الحلل السندسية في الاخبار التونسية ..... الوزير السراج
4 — البيان المغرب ..... ابن عـذارى
5 — المؤنس في أخبار افريقية وتونس ..... ابن أبي دينار
6 — خريدة القصر وجريدة العصر ..... العماد الاصفهاني
7 — الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ..... ابـــن بســام
8 — زهر الآداب وثمر الألباب ..... ابراهيم الحصـري
9 — أدباء العرب في الاعصر العباسية ..... بطرس البستاني
10 — معجمل تاريخ الأدب التونسي ..... ح. ح. عبد الوهاب
11 — الموسوعة الاسلامية ..

منتخبات

الخمريات

بنبل الجفون

بِنَبْلِ الجفون، وسحر العيون ... ومِيْلِ الغصون، كمثل الرّماح
ولَمْعِ الثغور، وبيض ٱلنُّحور ... وضيق الخصور، وجوْلِ ٱلوِشَاح
وورد الخدود، ومِيْسِ ٱلْقُدُود ... وضمّ النهود، ولثم الأقاح
وكأس المدام، غداةَ ٱلْغَمام ... بكفِّ الغلام، فراحٌ براح
كأنَّ الرحيق بكفِّ العشيق ... نظام العقيق، بجيد الرّداح
على المستهام، خايف الغرام ... فما في السلام، له من جُناح

* * *

وقوله من خمرية أخرى :

لله ليلتُنَا ونحن نُديرهَا ... كأسا معتّقة من الخُرطوم
والطبْل يخفق والمزَامِرُ حولَه ... تتخالف العِيدَانُ فِي المزْمُومِ (1)
فلئن صبوْتُ فقد صبا أهل النُّهَى
ولئن هفَوْت فلست بالمعصومِ

* * *

(1) المزموم : مقام من المقامات الموسيقية بالبلاد المغربية ، وفي عرف أهل المشرق هو نوع من الجاهركة .

وقال أيضـــا :

اسقِياني فلست أصْغي لِعذْلِ ... ليس إلاَّ تعلَّةَ النفس شُغلـي
أأطيع العذول في ترك ما أهوى ... كأنِي اتهمت رأيي وعقلـي
علَّلاني بها فقد أقبل اللَيـــل ... كلونِ الصدود من بعد وصْل
وانجلى الغيمُ بعدما أضحك الرَوْ ... ض بكاء السحاب جادَ بِوبْلِ
عن هلال كصولجان نضـــار ... في سماء كأنها جامُ ذبْـــلِ

* * *

وقال أيضـــا :

رُبَّ صفراء علَّلَتْنِي بصفرا ... ء وجُنْحِ الظَّلاَم مُرخي الإزَارِ
بين مـاء ورضة وكـروم ... ورواب منيفـة وصحـــار
تتثنَّى بسه الغصون علينـــا ... وتجيب القيانُ فيها القَمارِي
وكأنَّ الدُجى غدائـرُ شعـــر ... وكـأن النجوم فيها مـدَارِي
وانْجلَى الغَيْمُ عن هلال تبدَّى ... في يد الأفق مثل نصف سِوار

* * *

وقال أيضـــا :

وزنجية الأباء كَرْخِيَّة الجلب ... عنَّابية الانفاس كَرْمِيَّة النَّسب
كُمَيْت بَزَلْنَا دَنَّهَا فَتَفَجَّرَتْ ... بأحْمَرِ قَانٍ مثل ما قَطَرَ الذَّهَبْ
فلمَّا شربناهـا صبوْنَـــا كَأَنَّنَـــــا
شربنا السرور المحْضَ واللهو والطَّـربْ

ولم نأت شيئا يسخط المجْدَ فِعْلُـــــــهُ
سوى أنَّنَا بِعْنَا الْوقَار مِـن اللَّعِـــبْ
كأن كؤوس الشرب وهي دوائر قطائِعُ ماءٍ جامدٌ تحمل اللَّهَبْ
يمدُّ بها كفًّا خضيبا مديرهـا وليس بشيءٍ غيرها هو مختضِبْ
فبتنا نُسقى الشمس والليل راكد ونقرب من بدر السماء وماقرب
وقد حجب الغيمُ الهلال كأنه ستارة شَرْب خلفها وجه مَن أحب
كأن الثريّا تحت حلكة لونهـــــــا
مداهــن بلّور على الأرض تضطـــرب

* * *

وقـــال :

كأن السحاب الغرّ أصبحنَ أكـــؤسـا
لنـــا وكأنَّ الرَّاح فيها سنَا الْبـــــرْقِ
إلى أن رأيـــت النجمَ وهو مغـــــرّب
وأقبـــل رايـــاتُ الصباح من الشـــرق
كأنَّ سواد الليل والصبح ضالـــــــع
بقـــايا مجـــال الكحْل في الأعين الزُّرْق

* * *

وقـــال :

ألا فاسقيـــانـــي قهـــوة ذهبيـــــــــة
فقـــد ألبس الآفاق جنح الدُّجى دعـــج

كأنَّ الثريـا والظـلام يحفهَـــــــا
فصوص لُجيْنٍ قد أحاط بها سبـــــــجْ
كـأن نجوم الليل تحـت ســـــواده
إذا جـنّ زنجـي تَبسّم عـن فلـــجْ

* * *

عتبت فانثنى عليها العتاب

عتبت فانثنى عليها العتـــاب ودعا دَمْع مقلتيها انسكَـابُ
وضعت نحو خدِّها بيديهـــا فالتقى الياسمين والْعُنَّـــابُ
رُبَّ مُبْدِي تَعتُّبٍ جعل العتْب رِياءً وهمّـه الإعْتَـــــابُ
فاسقنيها مدامة تَصْبغ الكـــأ س كما يصبُغ الخدودَ الشَّباب
مـا ترى الليل ! كيف رقَّ دُجـــــاهُ
وبـدا طيلسـانـه ينْجـــــــاب
وكأنَّ الصباح في الأُفق بـازٍ والدُّجى بين مِخْلَبيْـهِ غراب
وكأن السماء لُجَّـة بحـــر وكأنَّ النجوم فيهـا حبـاب
وكأن الجوزاء سيف صقِيـل وكأنَّ الدُّجى عليها قِـــراب

* * *

وقـال أيضـا :

نَقَّبتْ وجهها بِخَزٍّ وجـــاءتْ بمُدَام منقَّب بـزجـــاج
فتأمَّلت في النقابيـن منهـــا قمرا طـالعا وضوء سِـراج
فاسقِيـانِي بلا مِزَاج فانـــي في المعالي صِرْفٌ بغير مزاج(1)
وانظر الأُفق كيف بدَّله الإصْـ ـباحُ من بعْدِ أبنوس بعـاج

(1) مزاج الشراب : ما يمزج به

الغزل

ورد الخدود

ورد الخدود أرقُّ مـــن ورد الـريـاض وأنْعـــمُ
هـذا تنشّقـه الأُنـــو فُ وذا يقبّلـــه الفَـــمُ
وإذا عدَلْتَ فـأفضـــل الـ وردَيْنِ ورد يُلْثَـــمُ
لا وردَ إلاَّ مـــا تـولّـي صبْـغَ حمـرته الـــدَّمُ
هـذا يُشَـمُّ ولا يُضَـــمُّ وذا يُضَـمُّ ويُشمـــمُ
سبحـان من خلـق الخـدو دَ شَقَـائِقَـا تُتَنَسَّـــمُ
وأعـارها الاصـداغ فَـهْـيَ بِها شقيـــق يُعْلَـــمُ
واستنطَـقَ الاجفـــانَ فهـي بلحظهـــا تتكلَّـــمُ
وتُبِيـنُ للمحبـــوب عن سـرّ الحبيـب فَيفْهَـمُ
وتشيـر ان رأت الـرَّقيـب بلحظهـــا فَيُسلَّـــمُ
وأعـارهـا مرضا تَصِـــح بـه القلـوبُ وتَسْقَـــمُ
فِتَـنُ العُيُونِ أجـلُّ مـــن فِتَـنِ الخـدود وأعظَـمُ

* * *

وقـال :

إن كانت الألحاظُ رُسْلَ القُلُوب فينـــا فما أهْونَ كَيْدَ الرَّقِيب
قَبَّلْتُ من أهوى بعيني ولـم يعلـمْ بتقبيلي خدَّ الحبيبْ
لكنَّه قد فَطِنَتْ عينُـــهُ بِلَحْـظِ عيني فِطْنَةَ المستريب
ان كان علـم الغيب مستخفيا عنَّا فعند اللَّحظ علمُ الغيوب

عقرب الصدغ ...

عقرب الصُّدغ فوق تفّاحة الخَـ ـدِّ نَعِيمٌ مطّرز بعـذاب
وسيوف اللحاظ في كل حين مانعـاتٌ جنَى الثنايا العذاب
وعيون الوشاة يُفْسدن بالرّقْـ ـبةِ والمنْع رؤيـة الأحباب
فمتى يشْتَفِي المحبّ وتُطْفَـى بالتَدَانـي حرارة الإكتئـاب

* * *

أأعذل قلبي

أأعذل قلبي وهولي عـاذل
وأعصـي غرامي وهو ما بين أضلعـي
ومن لـي بصبر أستزيل به الجـوى
ولا جلـدي طوعي ولا كبدي معِـي
فأوّل شـوقي كان آخَر سلْوتـي
وآخـر صبـري كـان أول أدمـعي

ترى عذاريه قد قاما بمعذرتي

ترى عِذَاريه قد قاما بمعذرتـي عند العذُول فيغدُو وهو يعذرني
رِيمٌ كأنَّ له في كلِّ جارحـــــــة
عقـــدا من الحُسن أو نوعا من الفتـــن
كأنَّ جوهره من لطفه عـرضٌ فليس تَحْويه إلا أعيُنُ الفطن
أخفى من السرّ لكن حُسنُ صـــــورته
إذا تأمّلتـه أبْدَى من العلَـــــــنِ
والله مـا فَتَنَـتْ عيني محاسنُـــــــهُ
إلا وقد سَحَرتْ ألفـاظـه أذنـــــــي
مـا تصدُرُ العين عنـه لحظَهَا ملَـــــلاً
لأنَّـهُ كُلّ شَخْص مرتضًى حســـــن
يا منتهى أملي لا تُدْنِ لِي أجلـــــــي
ولا تعـذِّبْ ظنوني فيك بالظَّنَـــــنِ
ان كان وجهك وجها صِيـغَ من قمـــرٍ
فـإنَّ قَدَّكَ قَـدٌّ قُدَّ مـن غُصُـــــــنِ

* * *

الا يا نسيم الريح

ألا يا نسيم الرّيح عـرّج مسلّمـــــا
على ذلك الشخص البعيد المـــودَّع
وهُبَّ على من شَفَّ جسمي بعـــــادُهُ
سمُـومًا بما استَملَيْتَ من نار أضلعي (1)
فان قال ما هذا الحَرُورُ فقـــل لـــه :
تَنَفُّسُ مشتـاقٍ بحبّك مُـــوجَعِ (2)

* * *

قالوا الرحيل نخمة

قـالـوا الرَّحيل لخمـــــة تأتي سريعا من جمـــادى
فـأجبْتهـــم أنّـي اتَّخَـذْ تُ لَـهُ الأسـى والحزنَ زادا
سبحـان من قسم الأسـى بين الأحبّـة والبعـــادا
وأعـار للأجفـان حسنـا تستـرِقُّ بـه العبـــادا

(1) السموم : الريح الحارة تكون غالبا بالنهار
(2) الحرور : الريح الحارة بالليل

أغراض أخرى

شكوى الزمان

وذي عجب من طول صبري على الـذي
ألاَقِـي من الارزاء وهو جليـــــــلُ
يقـولون ما تشكو فقلت متى شكـــــا
شبـا السيف عضب الشفرتين صقيـل
وأن امـرءًا يشكو إلى غير نـافـــــع
ويسخـو بما في نفسه لجهـــــــول
عذابي أن أشكو إلى الناس انني
عليلٌ ومن أشكو إليـه عليـــــــل
سـأسكت صبرا واحتسابا فإننـــــي
أرى الصبر سيْفًـا ليس فيه فلـــــول

* * *

تقلب الدهر

يـا دهر ما أقساك من متلـــــــــوّنِ
في حالَتَيْـك ومـا أقلَّكَ منصفَـــــا
أتروح للنكس الجهــول ممهِّـــــــدا
وعــلى اللبيــب الحــرّ سيْفا مرهفـــا
وإذا صفوتَ كدرت شيمة بـــاخـــــل
وإذا وفيــت نقضت أسباب الــوفـــا
لا أرتضيــك وإن كرمتَ لأننـــــــي
أدري بأنك لا تدوم على الصفـــــــا
زمــن إذا أعطـى استردَّ عطـــــاءه
وإذا استقام بـــدالـــه فتحـــــرّفـا
مــا قام خيرك يا زمان بشـــــــرّه
أوْلَى بنا ما قلَّ منك ومـــا كَفَـــى

* * *

وصف منافق حاذق

رأيتـك قاعدا عـن كلّ خيـــــــــرٍ
وأنـت الشهـمُ في قالوا وقلـــــتُ
وأطـوار لهـا لطف وحـــــــــذق
وألفـــاظ تنمّقهـا وسمـــــت (1)
وثقـتُ إليه من حسبٍ وبيـــــتٍ
ولـولا ذاك منه لمـــا وثقـــــت
وقـد يعِدُ الـوعودَ وليس يـــــوفي
وليـس بقائِلٍ يـوما فعلـــــت
كخبـــزٍ المـاء فوق الماء طـــافٍ
يـــروق ومـالُـه أصلٌ ونبـــت
كـذلك زهرة الدُّفْلَى تـراهـــــا
تشـــوق العينَ حسنا وهي سُخْـت (2)

* * *

(1) تنمقها : تحسنها وتزينها
2) سحت : خبث

متى كانت دماؤكم تطلّ

متى كانت دماؤكم تظـــلُّ ... أمـا فيكـم بثار مستقـــلُّ
أغـانم ثمّ سالـم أن فشلتـم ... فمـا كانت أوائلكـم تـذلُّ
ونمتم عن طلاب المجد حتـى ... كـأنَّ العـزَّ فيكم مضمحـلُّ
وما كسّرتم فيه العـــوالـــي ... ولا بيض تفـلُّ ولا تُسـلُّ(1)

* * *

بكر الخيل دامية النحور

بكرّ الخيل دامية النحـــور ... وقرع الهام بالقضب الذكور(2)
لاقتحمنها حربا عوانـــــا ... يشيب لهـولهـا رأس الصغير
فإمّـا المُلْك في شرف وعـــزٍّ ... علَيَّ التاج في أعلى السـرير
وأمّـا الموت بين ظبى العوالي ... فلستُ بخالـد أبد الدّهـور

---

1) العوالي : الرماح
2) الهـــام : الرؤوس
القضب : السيـوف

مـا اختلف الصبح والمسـاءُ وأَنْفِـذَ الحُكمُ والقَضَـاء
ألاَ ولله فيـه سـرٌ يحكم في الخلق مـا يشـاءُ

* * *

وقال حين حضرته الوفاة:

فكَّرْت في نار الجحيم وحرّها يا ويلتاه ولات حين منـاص
فدعوت ربي ان خير وسيلتي يـوم المعاد شهادة الاخلاص

* * *

أبو القاسم الفزاري

الأرضية الحضارية لعصر أبي القاسم الفزاري

1 ـ الصراع المذهبي والسياسي

في المجتمع الافرقي ذي الصبغة الاسلامية ، كانت في النصف الأول من القرن الرابع الهجري ، ثلاثة مذاهب اسلامية تتصارع : الشيعة ، والسنة ، والخوارج .

أ ـ الشيعة:

الشيعة في الأصل حزب سياسي يطالب بارجاع الخلافة إلى علي بن أبي طالب زوج فاطمة بنت الرسول (ص) . وبما أن فاطمة هي الوارثة الوحيدة لأبيها فقد كان من الطبيعي أن يتشبث زعماء هذا المذهب بهذه القرابة وهذه الوراثة فلذلك قالوا انهم هم الفاطميون . وفضلوا هذا الاسم على العلويين أو الطالبيين أو الشيعة ، بصفة عامة فيقول ابن هانيء .

أبناء فاطم هل لنا في حشرنا لجأ سواكم عاصم ومجار ؟
أنتم أحباء الاله وآله خلفاؤه في أرضه الأبرار

أهل النبـــوّة والرسالة والهدى في البيّنات وسادة أطهار (1)

في حين يرى السنيون أن الأنبياء لا يورثون ، فما يخلفونه يوزع على المجموعة هبة وصدقة . وبالتالي فلا حق لعلي فـي خلافة الرسول السياسية على الأمة الاسلامية . وإنما يبايع الخليفة من بين الصحابة قاطبة ، وعلى هذا الأساس تم انتخاب أبي بكر ثم عمر ثم عثمان فعلي قبل أن ينتهي الامر الى ملوكية وراثية على يد بني أميّـــة .

على أن الحركة الشيعية ـ رغم ما ألحق بها من تعسف واضطهاد ـ ظلت طيلة القرون الثلاثة الأولى ، تواصل دعايتها ، علانيـة تارة وسريّا طورا آخـر . وكانت أول ثورة ناجحة يقومون بها هي ثورة الداعي أبي عبد الله في قبائـل (كتامة) فأطاح بالحكم الأغلبي في معـركة (الأريس) سنة 296 هـ 909 م ومهّد لمـولاه «عبيد الله المهدي» الذي انتقل سرا من «سلمية» في جنوب حمص مركز الدعوة بالشام إلى سجلماسة بأقصى جنوب المغرب (2) .

وبذلك قامت الدولة العبيدية الشيعية ، وانتصب عبيد الله المهدي برقادة سنة 297 هـ 990 م ، فدامت به إلى سنة 362 هـ 973 م وهو تاريخ انتقال المعز رابع الخلفاء الفاطميين إلى القاهرة . إلاّ أنه ينبغي أن نشير إلى أن ظهور العبيديين كان يعني ظهور عامل جديد في حياة افريقية وفي تأكيد الصراع الذي كان يهزها من جميع الأطراف فأهل افريقية مالكية خلّص اعتنقوا

1) ديـوان ابن هانيء ص 365 ـ 378
2) صبـح الأعشى للقلقشنـدي .

المذهب المالكي وتعصبوا له وأخذوا ينظرون إليه وكأنه جزء من قوميتهم ، والعبيديون شيعة همّهم التمكن والقضاء على المناهضين . من هنا كان على أرض افريقية أن تواجه صراعا حادا بين الشعب وحكّامه . (1)

ب ـ السنة :

السنة لغة تعني الطريقة أو المنهج ، وهي اصطلاحا اتباع الرسول صلى الله عليه وسلم في أقواله وأفعاله ـ غير أن اللفظة اكتسبت على مرّ الزمان معنى آخر فأصبحت تعني : المجموعة الاسلامية التي تتبع أحد المذاهب الأربعة التي استنبطت من القرآن وسنة الرسول الواردة في الكتب الستة(2) ، جملة الأحكام والقضايا والحلول التي تنظم حياة المسلم في ميداني العقائد أو العبادات والأمور الاجتماعية أو المعاملات .

وهذه المذاهب الأربعة هي :

ـ المالكية : نسبة إلى مالك ابن أنس الذي روى عن أهل المدينة الذين حفظوا سنة الرسول أي عمله وأقواله ولذلك يعتبر اتباع هذا المذهب أنفسهم أقرب المسلمين إلى سنة الرسول صلى الله عليه وسلم

ـ الحنفية : نسبة إلى أبي حنيفة النعمان العراقي الذي زاد على تمسّكه بسنّة الرسول استخدام العقل والرأي في استنباط الأحكام التي لم يرد في شأنها نص صريح .

1) طبقات علماء افريقية وتونس تحقيق علي الشابي ونعيم حسن اليافي ص 12
2) سنن ابن ماجة ـ سنن الترمذي ـ مسند ابن حنبل ـ سنن ابن داود ـ الصحيحان

ـ الحنبلية : نسبة إلى أحمد ابن حنبل الذي كان يرفض استعمال الرأي والقياس ولا يصدر في أحكامه إلا عن القرآن والسنّة.
ـ الشافعية : نسبة إلى الإمام الشافعي الذي كان وسطا بين المالكية والحنفية وتجدر الاشارة إلى أن هذه المذاهب الأربعة كانت تجمع الجمهور الأكبر من المسلمين لذلك أدرجت اصطلاحا في ما عرف بمذهب السنة، وما عدا ذلك من المذاهب فأطلق عليها «فرقا» أو «نحلا» أو «مللا» باعتبار أنها منفصلة عن الجمهور.

ونستثني من هذه المذاهب مذهب الخوارج الذي اعتبره بعضهم مذهبا خامسا لقرابته من المدارس السنية.

أما المذهب السائد بافريقية في القرن الرابع الهجري ـ وهي الفترة التي تعنينا ـ فهو المذهب المالكي. وقد كان سحنون التنوخي (1) هو الذي «علم أهل المغرب المذهب المالكي ولقنهم «المدوّنة» فحارب أهل البدع والضلالات وأخفت كل صوت مارق وكل نزعة عقلية، ومنع دروس الاباضية والصفرية والمعتزلة التي كانت تلقى بجامع عقبة وعزل أصحابها عن تعليم الصبية وحرم المناظرة في غير المذهب المالكي. ولأن الحالة النفسية لأهل المغرب كانت مستعدة لرفض كل دعوة أو اتجاه لا يقف عند أصول الشرع نتيجة للثورات المتكررة التي قام بها أهل الفرق من شيعة وخوارج وغيرهم، فقد اثمرت

---

1) مولده سنة 160 هـ ووفاته سنة 240 هـ

فيهم استاذية «سحنون» وأصبحوا ينظرون إلى المالكية وكأنها جزء من قوميتهم، فهي أمنهم ودرعهم الواقي من كل فتنة أو تمرد(1).

ويظهر الفقهاء والشعراء في هذه الفترة كقوة سياسية تناهض الدعوة الفاطمية الشيعية فنرى أبا القاسم الفزاري يتحامل على العبيديين مستنكرا منهم تقديسهم لأئمتهم واعراضهم عن فتاوي الشيخين، متمنيا لهم الهزيمة على يد أبي يزيد مخلد بن كيداد النكاري:

عبدوا ملوكهم وظنوا أنهم نالوا بهم سبب النجاة عموما(2)
وتمكن الشيطان من خطواتهم فأراهم عوج الضلال قويما
رغبوا عن الصديق و الفاروق في
أحكامهم لا سلّموا تسليما
واستبدلوا بهما ابن أسود نابجا وأبا عمارة واللعين تميما
يا رب فالعنهم ولقّ لعينهم بأبي يزيد من العذاب أليما

ونراه في موضع آخر يفتخر بالقيروان التي أسسها أصحاب بدر ويفضلها على بغداد التي أسسها أمير:

فهل للقيروان وساكنيها عديل حين يفتخر الفخور(3)
بلاد حشوها علم وحلم واسلام ومعروف وخير
عراق الشام بغداد وهذي عراق الغرب بينهما كثير
لست أقيس بغداد إليها وكيف تقاس بالسنة الشهور

---

1) طبقات علماء افريقية وتونس — تحقيق علي الشابي ونعيم حسن اليافي . ص 14 — 15
2) حوليات الجامعة التونسية — العدد العاشر — محمد البعلاوي . ص 126 — 127
3) مجمل تاريخ الأدب التونسي ح ح عبد الوهاب ص 86 — 87 .

بلاد خطها أصحاب بـــــدر وتلـك اختط ساحتها أميـــر
بناها المستجاب (1) وقد دعا في جـوانبها دعاء لا يبـــور
بناها كل بـــدري كـريـــم كأن صفـــاح أوجههم بدور

ج - الخـوارج :

هم جماعة من أصحاب علي بن أبي طالب ، استنكروا منه قبوله للتحكيم بينه وبين معاوية فانشقوا عنه وتركوه قائليـن : «أن لا حكم إلا الله» وقد قاومهم علي على مضض فهزمهم في واقعة «النهروان» فزاد سخطهم عليهم وشرعوا في تدبير مكيدة يتخلصون بها من الخصوم الثلاثة : علي ومعاوية وعمرو بن العاص ، إلاّ أنه لم يصب من هؤلاء الثلاثة إلا علي صبيحة 17 رمضان 41 هـ 661 م فقد اعترضه عبد الرحمن بن ملجم في طريقه إلى مسجد الكوفة وضربه بسيف مسموم فقتله ، واستمـرت حركة الخوارج في مقاومة الحكم الأموي ثم العباسي فكانت لهم ثورات مستمرة بالعـراق وبلاد فارس وأخيرا في افريقية والمغـرب .

واشتهر من رجالهم في العصر الأموي « نافع بن الأزرق ونجدة بن عامر و «عبدالله بن أباض التميمي » الذي ما لبث ان انشق عن الازارقة لأنه أبى تكفير المسلمين الذين لا يعتنقون المذهب الخارجي وعارض قتل النساء والاطفال وانتقل مذهب الاباضية إلى افريقية في مستهل القرن الثاني للهجرة فكان من

1) يعني بالمستجاب الصحابي عقبة ابن نافع مؤسـس القيـروان ، وأوّل من اختط بها هـو مسجدها المشار إليـه هنـا .

زعمائها : عبد الرحمان بن رستم « وأبو الخطاب عبد الأعلى المعافري الذي صار أول إمام للدولة الاباضية المستقلة عن الخلافة العباسية وذلك سنة 140هـ 757م بطرابلس ليبيا، وقويت الدعوة الاباضية بانضمام القبائل البربرية الناقمة على الحكام العرب إليهم فاحتلوا القيروان سنة 141هـ 757م إلاّ أن هذه الدولة الاباضية لم تعمر طويلا إذ جندت لهم الدولة العباسية أربعين ألفا بقيادة ابن الأشعث بدّدت جموعهم (1) فالتفّت فلولهم حول عبد الرحمن ابن رستم، واعتصموا بالمغرب الأوسط فأسسوا الدولة الرستمية «بتاهرت» جنوب وهران ــ وتوالت ثوراتهم إلى أن قامت الدولة الفاطمية سنة 296 هـ 909م.

تعاليم الخوارج :

«يرى الخوارج أن الخلافة يجب أن تكون باختيار حر من المسلمين وإذا اختير فليس يصح أن يتنازل أو يحكّم، وليس بضروري أن يكون الخليفة قرشيا ، بل يصح أن يكون من قريش ومن غيرهم ولو كان عبدا حبشيا.

وإذا تم الاختيار كان رئيس المسلمين ، ويجب أن يخضع خضوعا تاما لما أمر الله وإلاّ وجب عزله (2) فإذا لزم أحكام القرآن فلا يجوز تقييد نفوذه بشروط. ومسألة الشروط هذه هي التي أدت إلى انقسام الاباضية، فخرج عنهم جماعة عرفوا بالنكار وإليهم ينتسب أبو يزيد مخلد بن كيداد صاحب الحمار.

---

1) راجع ابن عذاري : البيان المغرب في أخبار المغرب .
2) أحمد أمين : فجر الإسلام ص 258 ــ 259 .

أبو يزيد مخلد بن كيداد النكاري

هو القائد الخارجي الذي ثار على العبديين بافريقية، يرجح أنه ولد ببلاد السودان ، إلا أن الثابت أنه ينحدر من أسرة خارجية اباضية . تلقى المبادىء الاباضية ثم انتصب مؤدبا يعلم الصبيان بتاهرت عاصمة الرستميين . وبعد انهيار الدولة الخارجية التحق بالجريد فاستقر بتوزر وأخذ في مناهضة الحكم العبيدي، وما أن بدأت دعوته تظهر حتى هبّت جموع الأنصار تعاضده، فانتقل صحبة شيخه أبي عمار الأعمى إلى جبال الأوراس فاجتمع إليه خلق كثير، فلما أحس القوة ، أعلن التمرد والعصيان فاندلعت الثورة سنة 332هـ 943م فاحتل تبسّة » و «حيدرة» وهناك أهدي إليه الحمار الذي به عرف، ودخل القيروان سنة 333هـ 944م فانضم إليه العلماء والفقهاء الذين كانوا على استعداد لمساندة أي دعوة دينية أو سياسية أو غيرها تناوىء الحكم الفاطمي وتهدف إلى القضاء عليه، فواقعوا الشيعة » ولكن ابن كيداد طلب من جنوده في المعركة أن يتركوا علماء القيروان للاعداء فمات منهم خمسة وثمانون (1) منهم أبو الفضل عياش بن الممسي »

1) طبقات علماء افريقية وتونس : تحقيق علي الشابي ونعيم حسن اليافي ص 20 .

«وأبو اسحاق السبائي» وقد رثى أبو القاسم الفزاري شيخه الممسي بقصيدة منها :

بنفسي صريع حالت الخيل حـــولـــه
بمعتـــرك الأبطال أي صريـــع (1)
ولست له أبكي ولكـــن لمعشـــــــــر
أصيبوا به من فرّد وجميـــــــــع
وللعلم والاسلام والدين والتقى وطول احتمال واصطناع صنيع
مضى علم العلم الرفيع وطالما أصابت قناة الموت كل رفيع

وقد استمـرت ثورة صاحب الحمار إلى سنة 336 هـ 947 م وهو التاريخ الذي تمكن فيه المنصـور بن القائـم الفاطمي من القضاء نهائيا على أبي يزيد مخلد بن كيداد ، ولم يؤاخذ الخليفة الفاطمي أهل القيروان بمؤازرتهم لصاحب الحمار بل أظهر من الحلم والحنكة السياسيـة ما جعله يكسب تأييـــد قسـم كبيـر من أهل القيـــروان .

ويدلّ على ذلـك مـدح الشعـراء لـه كأبي القاســـم الفـــزاري الـذي دخل عليه في جملة مـن استأمن ، وتقـرّب إليه بالقصيدة الفـزارية بعـد أن مدح انتصار صاحب الحمار بأشعـار كثيـرة ثلب فيهـا الفاطميين .

إن هذه الأرضية من الثـورات المتتـالية والصـراع المـذهبي العنيف هي التي عـاش على صعيـدهـا أبو القاسم الفـزاري فأثّـرت فيه وفي انتاجـه بشكل أو بآخـر .

1) معجم تاريخ الأدب التونسي : ح. ح. عبد الوهاب — ص 87

حياته

اسمه ـ أصله :

ذكر حسن حسني عبد الوهاب (1) أنه أحد شعراء القيروان المجيدين بها ولد وفيها نشأ وترعرع وبرع في الأدب واللغة، وأن اسمه أبو القاسم محمد بن عبد الله شهر بالفزاري، ويضيف الأستاذ الدكتور محمد اليعلاوي (2) أن بعض المترجمين له ـ للفزاري ـ كالزبيدي (ت379 ـ 989) يقولون انه ابن لشاعر نحوي قيرواني اسمه « عامر بن ابراهيم الفزاري » وأن أباه هذا كان عاملا للفاطميين على خراج الساحل الافريقي فهرب بالمال إلى مصر الاخشيدية ويقول أبو العرب في طبقاته أن جده (ابراهيم؟) هو الفزاري المقتول على ما شهد عليه به من التعطيل وكان من أهل الجدل والمناظرة. أهـ.

ويستنتج الدكتور اليعلاوي أن «شاعرنا على هذا الأساس هو أبو القاسم (محمد) بن عامر بن ابراهيم بن العباس الفزاري القيرواني (3).

1) مجمل تاريخ الأدب التونسي ص 83 ـ 84
2) حوليات الجامعة التونسية . العدد العاشر . ص 119
3) نفس المصدر . ص 119

مولده ـ نشأته ـ وفاته :

يقول المرحوم ح. ح عبد الوهاب في ترجمته للفزاري أنه ولد بالقيروان وفيها نشأ وترعرع ولكنه لم يذكر سنة ولادته. ولم يذكر اليعلاوي ولا أي مرجع آخر شيئا عن حياة الفزاري ونشأته ومهما كان الأمر فالثابت أنه عاصر الاربعة الخلفاء الفاطميين الأول : المهدي والقائم والمنصور والسنوات الأولى من خلافة المعز (1).

ورغم عدم استشهاده بأي مصدر فقد ذكر .ح.ح عبد الوهاب أنه توفي بالقيروان في حدود سنة 345هـ 956 م.

---

1) المهدي عبد الله أبـــو محمد ـــ 297 ـــ 322 ـــ 909 ـــ 934 ـــ م
القائم (محمد أبو القاسم) 322 ـــ 334 ـــ هـ 934 ـــ 945 م ـــ
المنصـــور (اسماعيل أبو طاهـــر) 334 ـــ 341 هـ 945 ـــ 952 م
المعـــز (أبو تميـــم) 341 ـــ 365 هـ 952 ـــ 975 م

شعره ومذهبه

لم يصلنا من شعر الفزاري إلاّ أربع قصائد ، ثلاث منها في هجاء الفاطميين ، ورثاء شيخه «أبي الفضل الممسي» فلذلك أدرجها أبو بكر المالكي في كتابه «رياض النفوس» (1) أما الرابعة وعرفت بالقصيدة الفزارية ـ نسبة إلى صاحبها ـ فتشتمل على مدح خافت للفاطميين، مسبوق بدرس مطوّل في التغنّي بمشاهير الجاهلية والاسلام ، من فرسان وأسياد وكرماء...

ويتجلى لنا من هذا الشعر أن الفزاري شاعر سني ، بل أنه فقيه سني، فشعره ضعيف الحبكة ، قليل الطلاوة ، عديم الخيال كشعر سائر الفقهاء ، ولا يبلغ شيئا من القوة والابداع إلاّ في هجاء الفاطميين حيث يتعرض إلى معتقداتهم مثل تقديس الأئمّة :

عبدوا ملوكهم (2) وظنوا أنهم نالوا بهم سبب النجاة عموما
وتمكن الشيطان من خطواتهم فأراهم عوج الضلال قويما(3)

ويستنكر منهم كرههم للشيخين أبي بكر الصديق ، وعمر

1) مجموعة تراجم لعلماء افريقية وزهادها . انظر حوليات الجامعة التونسية ص 120
2) عبارة ملك مستقبحة عند العرب لأنها تحمل معنى الظلم والطغيان ، لهذا قال ملك ولم يقل خليفة .
3) حوليات الجامعة التونسية : محمد اليعلاوي . ص 126

ابن الخطاب ، واعراضهم عن فتاويهم الفقهية ، كأن الشيعة لا يعترفون لهما بالقدرة على استنباط الأحكام :

رغبوا عن الصديق والفاروق في أحكامهم لا سلموا تسليما
تبعوا كلاب جهنم وتأخروا عمن أصارهم الالاه نجوما(1)

إلاّ أن الفزاري لا يتعرض في هجائه إلى نسبهم الفاطمي ، بالطعن ، كما يفعل أهل السنة ، بل يكتفي بمؤاخذتهم بكفرهم وزندقتهم ، ويتساءل عن حقيقة مذهبهم .

أمن اليهود ؟ أم النصارى ؟ أم هم
دهرية جعلوا الحديث قديما ؟
أم هم من الصابين ، أم هم عصبة
عبدوا النجوم وأكثروا التنجيما ؟
أم هم زنادقة معطلة (2) رأوا أن لا عذاب غدا ولا تنعيما (3)

وينهي قصيدته بلعنهم معتبرا أنهم محنة ابتلى الله بها أهل افريقية .

سبحان من ابلى العباد بكفرهم وبشركهم حقبا وكان رحيماً
يا رب فالعنهم ، ولق لعينهم بأبي يزيد من العذاب أليما

يكمن سر نجاح هذه القصيدة الهجائية في تشبيه الفاطميين بالدهرية والزنادقة والمعطلة . وفي التدرج من اليهود والنصارى ، وهم أهل كتاب إلى الفرق الضالة ، كأنه ينزه النصرانية

---

1) المصدر السابق . ص . 126

2) المعطلة عند أهل السنة هم المعتزلة الذين عطّلوا صفات الله أي جردُوه منها بإدماجها في ذاته تعالى .

3) حوليات الجامعة التونسية : محمد اليعلاوي ــ العدد العاشر ص 126

واليهود عن احتضان مثل هؤلاء ... كما يكمن في هذا الاستفهام المتلاحق ، وفي هذا الدعاء عليهم ، والابتهال إلى الله حتى يضربهم بأبي يزيد ... وإن هذا البيت الأخير يمكن أن يكون خيطاً يقودنا إلى تاريخ القصيدة ، فقد نظمت أيام فتنة أبي يزيد مخلد بن كيداد ، صاحب الحمار ، حين أوشك حكم ثالث الخلفاء الفاطميين ، اسماعيل أبو طاهر المنصور على الانهيار ، ولعل هذا ما جعل الفزاري يقدم على هجوهم بمثل هذا العنف .

وقد قدّم أبو بكر المالكي لهذا الهجاء بقوله «لأبي القاسم الفزاري أشعار كثيرة في هجو بني عبيد ... (1) والراجح أن كراهيته للشيعة هي التي أملت عليه ادراج هذا الشعر في كتابه بيد أنه رغم كثرة هذه القصائد فلم يورد منها الا ثلاث ـ كما أسلفنا ـ وأسقط القصيدة الفزارية وربما يكون مرد ذلك لأنها في مدح الخليفة الفاطمي المنصور .

والى جانب هذه الميمية نجد للفزاري قصيدة أخرى ولكنها أضعف لهجة من الأولى بل نكاد نجزم أنها بعيدة عن الهجاء ، اذ كل ما ورد فيها لا يعدو مدحاً للقيروان وأهلها ، وما عرفوا به من تقوى وزهد وصلاح ، وتمسك بالسنة ، الشيء الذي جعلها محل عناية مؤرخي القيروان ، فقد أدرج منها المالكي سبعة وستين بيتاً ، في حين اقتصر الدباغ في «معالم الإيمان» على القسم الخاص بمدح القيروان فقط .

وأيا ما يكون فليس لهذه القصيدة من قيمة إلاّ بمدحها

1) المصدر السابق . ص 126

الصريح للقيروان فالمقدمة طويلة ، ذات أبيات حكمية لا أثر للابداع فيها ، كأن يحذر من غرور الدنيا فيقول :

سلامتها وان دامت سقام ونعمتها ، وان دامت غرور
ومرعاها لراغبها وخيم وكثرتها لمكثرها يسير
تسر المرء يوما ثم تغدو فتسلبه ما أتاح له السرور
وان واتتك اقبالا ونعمى فعقباها الفجائع والقبور (1)

ويشير إلى تقلبات الدهر وحتمية الموت وأهوال يوم القيامة :

وان عزيزها عما قليل ذليل ، والغنيّ بها فقير
وكل مؤمّل أمل طويل وعمر لو تؤمله قصير
وبعد الموت أهوال عظام يشيب لبعضها الطفل الصغير
وبعد الموت للأرواح أما نعيم في الكرامة أو سعير (2)

ثم يتعرض الفزاري إلى فتنة أعمت وعمت ، ولا يوضح قصده ، ويلتبس الأمر فلا ندري أهو يعني الدعوة الفاطمية الشيعية ؟ أم ثورة صاحب الحمار ؟ ويبتهل إلى الله أن ينجي أهل القيروان من عواقب هذه الفتنة ، وينطلق بعدها إلى مدح القيروان والاشادة بعلمائها وزهادها . فيستشهد ببعض أمجادها ومآثر أهلها ، كإيواء الهاربين من الحرب ، وافتكاك السبايا من غاصبيهن ، ومؤاساة المنكوبين :

هم افتكوا سبايا كل أرض وفادوا ما استبد به المغير (3)

---

1) حوليات الجامعة التونسية : العدد العاشر . محمد اليعلاوي . ص 122
2) المصدر السابق . ص 122
3) حوليات الجامعة التونسية . العدد العاشر . محمد اليعلاوي ص 123

كفيناهم عظائمها جميعـــــا فزالت عنهم تلـــك الشرور
وسكنـــا قلوبـــاً خافقـــــات أمات عـــروقهـــا ضرّ ضرير
وآوينا وواسينـــا وكنـــــــا لهـــم أهـــلا ، وأكثرهم شطير
فبات طعامنـــــا لهم طعامـــــا هنـــاك ودورنا للقوم دور
كأن القيروان وهـــم عـــــراة حفاة محشر فيـــه المصيـــر

ثم يخلص الشاعر إلى التوجه بالخطاب الى معاشر لا ندري بالضبط من يكونون أهم الفاطميون ؟ أم الخـــوارج ؟ على أن إشارته إلى أنهم كانوا يعتصمون بالبحر تجعلنا نرجح أنه يعني الفاطميين الذين اعتصموا بالمهدية عندما اشتدت ثورة صاحب الحمار ، ومهما كان الأمر فان الماعه غامض ، وتحامله ضعيف ، وكلامه أقرب الى الاعتذار والتبرؤ منه الى الجدال المذهبي :

ألا أبلغ معاشر ليس عنـــــدي لهم عذر ولا فيهم عذير (1)
نحب صلاحهـــم وهم غضاب علينـــا ، ان ذا جور كبيـــر
ضمـــائرهم مـــراض واجمـــات علينـــا ، لا أفاق لهم ضمير
ولا ذنب لنـــا الا لانّـــــــا سلمنا حين عمهم الثبـــور
وليس لنا كمـــا لهم حصـــون ولا جبـــل أعـــاليـــه وعـــور
ولا سور أحاط بنا ولكـــــــن لنا من حفظ رب العرش سور
ولا نأوى إلى بحر ، وأنـــــى اذا قضي القضا تنحى البحور

ولا نسرف على الحقيقة اذا قلنا أن هذه الاشارات الخفية هي التي حدت بالمالكي وغيره أن يعتبر هذه الـــرائية هجـــاء للفـــاطميـــــن .

---

1) نفـــس المصدر . ص 124

أما القصيدة الثالثة من شعر الفزاري فهي مرثية نظمهـــا في شيخه أبي الفضل الممسي ، الذي حرض أهل القيروان على محاربة الفاطميين ، والوقوف الى جانب أبي يزيد صاحب الحمار وخرج هو فعلا فلقي حتفه في وقعة المهدية، وكانت أول هزيمة يمنى بها صاحب الحمار ، كما كانت في نفس الوقت بـــدء عودة الروح للدولة الفاطميـــة .

استهـــل الفـــزاري مرثيته بالتفجع على الفقيد :

عليك ابا الفضل انسياق دموعي وشغلي بأنواع الأسى وولوعي(1)
ونار ان : نار في المآقي بالبكا ونار من الاشجان بين ضلوعي

وواضح أن مطلع القصيد تقليدي لم يخرج فيه الفـــزاري عن المألوف . ثم يعدد مآثر الفقيد ومناقبه ويشير الى أعظـــم صفة له وهو أنه عاش سنّيا .

على سنّة الاسلام عـــاش كأنما يقابلـــه منها انفلاق صديع(2)

ويتعرض بعد ذلك الى ظروف استشهاده ، إلاّ أنه لا يشير الى الأطراف المتنازعة ولا ينحاز الى شق معين ، وكأنه غير واثـــق من نتيجة الفتنة ، أتكون الغلبة لصاحب الحمار ؟ أم للفاطميين ؟ وربما يكون مردّ ذلك الى تذبذبه ، وتذبذب أهل افريقية عامـــة ، بين هذين الشرين ، أو هاتين العداوتين : الفاطميون أصحاب المذهب الدخيل ، شاتمو الشيخين ، ومقدسو أئمتهم ، والخوارج المبالغون في تشددهم ، المعلنون عن نواياهم الثورية ، المهددون للحضـــر بميلهم الى النهب والسلب والقتل .

1) حوليات الجامعة التونسية . العدد العاشر . محمد اليعلاوي . ص 137
2) الصـــديـــع = الصبـــح

والشيء الذي يلفت النظر في استعراض الفزاري لظروف مقتل الممسي أنه لم يتطرّق الى معاني الشجاعة والبطولة عند الفقيد ، بل نراه يؤكد على قوّة ايمانه وورعه وصلاحه ـ وهو ما يتماشى مع شخصية زاهد صالح كالممسي :

قضى نحبه بين الأسنة والظبى(1) شهيدا مع العبّاد غير جزوع(2)
وظل الى دار العلى متطلعا يناجي إليها نفسه بطلوع
وضمخ في مثل الخلوق (3) بطعنة
كست صدره المحمود ثوب نجيع(4)
ومدّ يمينا كان معتمدا بها لطول سجود أو لطول ركوع
وقلّب طرفاً طالما بات ساهرا بمحرابه يذري وكيف دموع(5)

وواضح أن مواقف مثل هذه لا صلة لها بالحرب ولا تعنى بحال من الأحوال أن صاحبها مات محاربا . إلاّ أن الفزاري يأبى الا أن يعده كذلك ، بل ويرتفع به إلى مصاف الشهداء ، فيندفع مصورا الحور العين وهن ينادين من شرفات الجنان الشيخ الممسي

وما مات حتى بشّر الحور باسمه وعاينّه في صحة وهجوع
وأشرفن من أعلى الجنان تشوقا ونادين فارتاح ارتياح سميع

ولو قيل : بع بعض الذي نلت بالذي
تركت لكان البعض غير مبيع

---

1) الظبي ج ظبية : حد السيف
2) حوليات الجامعة التونسية . ص 138
3) الخلوق : هو كل طيب ولكنه الزعفران خصوصا ولونه أحمر .
4) النجيع : الدم الأحمر القاني .
5) السدموع الواكفة : المسترسلة .

واذا كان مقتل الممسي قد خلفه في نفس الشاعر ، اللوعة والأسى ، فإنه خلّف من ناحية أخرى ما هو أدهى من ذلك وأمر ، فبفقده فقد العلم والدين علما شامخا ، وعالما جليلا :

ولست له أبكي ، ولكن لمعشر أصيبوا به من فرّد وجميع(1)
وللعلم والاسلام والدين والتقى وطول احتمال واصطناع صنيع
مضى علم العلم الرفيع وطالما أصابت قناة الموت كل رفيع
ولولا التأسي بالنبي محمد وأعظم به من أسوة لمروع
لقل عزائي أثره وتصبري وطال بكائي بعده وخشوعي

وينهي الفزاري مرثيته بالدعاء للفقيد أن تسقي قبره السحب الندية ، وأن يحله الله محلاً رفيعاً بالجنان ، ويتمنى أن يكتب له أن يراه هناك ، وهي اشارة خفية لطلب الجنة لنفسه أيضاً :

سقى جدثا أضحى به الفضل ساكنا
من المزن خفّاق البروق هموع (2)
ألا ليت شعري هل أرى نور وجهه
بيوم عصيب للأنام جموع ؟
أعدّ لك الله الكرامة والرضى بأعلى محل في الجنان وسيع
وجازاك عن دين النبي وهديه جزاء مريد للإلاه مطيع
سأبكيك حتى يقرح الدمع مقلتي
وما ذاك ان طاولته بشنيع

---

1) الحوليات . العدد العاشر . محمد اليعلاوي ص 138 — 139
2) المصدر السابق . ص . 140

ويخلد ذكرا منـــك في كل بلـــــــــدة
شعر عجيب للـــرّواة بديـــــــــع

وإذا كانت القصائد الثلاث السابقة قد وجدت عناية من قبل المالكي والدباغ وأهل السنة بإفريقية بصفة عامة ،ـ لأسباب سياسية ومذهبية ـ فإن القصيدة الفزارية لم تحظ باهتمامهم لاعتبارات سياسية ومذهبية أيضاً ـ إذ أنها نظمت في مدح الخليفة الفاطمي المنصور ، والمدح فيها واضح لا تقية فيـه كما في بقية مواقف الفزارى من الأطراف المتنازعة ـ كما أسلفنا

ولعل سبب شهرتها يكمن في أن الفزاري استعرض في القسم الأول منها ـ وهو الأطول ـ اسمـاء أبطال العـرب وأجوادهـم ومشاهير رجالهم في الجاهلية بخاصة، فجاء هذا القسم التاريخي أشبه بالدرس في أيام العرب ، ولكنه درس صيغ شعرا في اشارات إيحائية عابرة ، دون الحاح في مناقب كل علم مـن هـؤلاء الأعلام ، مما يدل دلالة واضحة على أن هذه الأسماء : أوس بن سعدى ـ وقيس بن عاصم ـ وبسطام بن قيس وغيرهم ، كانت معروفة بإفريقية في القرن الرابع ، وبالتالي فإن الحضارة العربية الاسلامية بالقيـروان استـوعبت هـذا الرصيد البطولي مـن أمجاد العرب ، ولا غرابة فـإن كتب الأدب الكبرى كالأغانـي للاصفهاني ، والعقد الفريد لابن عبد ربه كانت معروفة ورائجة في القرن الرابع هـ ، وهي التي تروي في اطناب أيام العرب .

وهذا الدرس التاريخي لا يخلو من مهارة ، فقد بناه عـلى

شكل جملة ناقصة مبدؤة بنفي، وتتوالى أسماء الأبطال معطوفة على بعضها بعضاً :

لعمرك ما أوس بن سعدى بقومه ولا سيد الأوبار قيس بن عاصم(1)
ولا كان ذو الحدين بين كتائب
لها ميم من بكر وحي اللهازم (2)
و ربُّ معد والأحالف حوله
عباب كموج اللجة المتلاطم (3)
ولا حاجب ذو القوس يخطر حوله
قُروم كأسد الغيل من آل دارم (4)
واحنف سعد بين سعدو مالك
ومن رامهم من نهشل والبراجم (5)

---

1) أوس بن سعدى هو أوس بن حارثة الطائي ، كان من سادات العرب وكرمائها، وسعدى أمه . وقيس بن عاصم من بني منقر بن تميم وهو سيدهم وفيه قال الرسول : هذا سيد الوبر .
2) ذو الحدين وهو مسعود بن بسطام من بني شيبان من ربيعة وكان شريفاً سيدا في قومه واللهازم بطن من بني شيبان .
3) يقصد برب معد : قصي بن كلاب جامع كلمة قريش وباني دار ندوتها بمكة .
4) حاجب ذو القوس : هو ابن زرارة بن عدس التميمي المشهور بشرفه في الجاهلية والإسلام وسمي ذا القوس لأنه كان رهن قوسه في عام شدة في أرض فارس ليحصل على توسعة لقومه .
5) يعني الأحنف بن قيس التميمي وبه يضرب المثل في الحلم عند العرب ونهشل والبراجم قبيلتان .

ولا خالد سم العداة ابن جعفـــــــــــر

ولا الحارث الشهم الفؤاد بن ظالم (1)

وذو الجبلين في عصـــائب طـــــــيىء

فتى الفضل والنعمى عدي بن حاتم (2)

ولا كان زيد الخيل والخير والقنـــــــا

وزيد المنايا والسيـــوف الصوارم (3)

وعمرو أبو ثور وعمرو بن عامـــــــــر

وعمرو بن عمر في الأسود الضراغم (4)

ولا كان بسطام بن قيس بن خالـــــــد

وعمرو بن كلثوم شهاب الأراقم (5)

ولا علم الأجواد كعب بن مامـــــــــة

عقيد الثناء المحض دون اللـوائـم (6)

---

1) خالـد بن جعفر سيد بني كلاب ، أما الحارث بن ظالم فهـو أحد فـرسـان غطفان المشهورين .

2) يعني جبلي طي وهما : أجا وسلمى ، ومن فخـر عـدي بن حاتم أن النبيء صلى الله عليه وسلم قـدمه على قـومه وأكـرمه .

3) زيـد الخيـل سمي بذلـك لطـرادها والغارة عليها وسمـاه الرسول بعـد اسـلامه زيـد الخيـر .

4) أبـو ثـور عمرو بن معدى كرب البطل العربي المشهوربشجاعته وعمرو بن عامر هو ابن مـاء السماء كان من سادات العرب وأمرائها ، وعمرو بن عمرو مـن أشـراف قبيـلة عبـس .

5) بسطام بن قيـس الشيباني فارس قبيلـة بكـر بن وائـل ، وسيـدهـا . وعمـرو بن كلثـوم أحد أشـراف العـرب قاطبة وشعـرائهـا .

6) كعب بن مامة الأيادي أحد أجـواد العـرب وبه يضرب المثل في الجـود .

ولا عـــوف المُوفي بذمّة جـــــــــاره
ولا جر في واديه غير المســـالم (1)
ولا الأشعث الكندي بين فـــــــــوارس
صفوف على أهل النجيـــر صلادم (2)

ثم يأتي الخبر :

بأمنع منّي في جوار خليفـــــة عطوف على أهل البيوتات راحم

أي أن هؤلاء الأسياد الأماجد الذين ضرب بهم المثل في القوة والبطش والكرم لم يكونوا أعز منه الان، وقد أمنه الخليفة وقرّبه .. ويواصل البيت المتمم للجملة بمدح الخليفة الفاطمي المنصـــور :

كريم المساعي والأيادي سمـــت بـــــه
أبوّة صدق من ذؤابـــة هـــاشم (3).
شريف الأداني والأقاصي مهـــــــذب
إذا ما عددنا فضل أهل المكارم (4)

وينهي قصيدته بفخر شعره وبهذه القصيدة الفزارية بالذات .

وتتجلى مهارة الفزاري في هذا التشويق إلى البقية، فالسامع

---

1) عـــوف بن هود الشيباني وهو المقول فيـــه : (لا حرب بوادي عوف) لشـــرفه ورفعـــة مكانـــه .

2) الأشعث أميـــر كنـــدة : أسرته مذحج ففدي بما لم يفتد بـــه عزيـــز ولا أمير ســـواه . ويعني بصفوف نجيـــر يوم أخذ الأشعث الراية.فغلب عسكـــر معاوية على ماء بصفين وصلادم : أسود أو صلاب .

3) اللؤابة في الأصل الشعر المنسدل من الرأس الى الظهـــر ومعناها هنا السلالة أي ســـلالة هاشم جـــد النبي صلى الله عليه وسلم.

4) مجمل تاريخ الأدب التونسي . ح. ح. عبد الوهاب . ص 84 — 85 — 86 —

يظل ينتظر المدح إذا كان هو الممدوح، أو ينتظر خبر الجملة إذا كان قارئا عاديا ، والانتظار عادة يكون مملا، ولكن الفزاري نجح في جعله مستساغا، مقبولا، فكل بيت عبارة عن شحنة من الذكريات والمحفوظات الأدبية ـ ان جازت العبارة ـ.

ثم إن المهارة لتتجلى خاصة في هذه المقارنة الضمنية بين الممدوح وبين كل هؤلاء الأبطال الأسياد، فيفضله عليهم جميعا باستعمال صيغة التفضيل، فما كل هؤلاء.

بأمنع منّي في جوار خليفـــــة عطوف على أهل البيوتات راحم

وأخيرا فإن المهارة تكمن في أن تخصيص القسم الأوفر من القصيدة لهذا الاستعراض التاريخي الأدبي، والقسم الأخير للفخر بشعره،يمكّن الشاعر من اختصار القسم المدحي، فالخليفة المنصور لم يمدح في النهاية إلا بسبعة عشر بيتا من ثلاثة وستين، والطرافة في نهايـة المطـاف أن الشـاعر خـرج عن التقسيم الثلاثي المألوف : نسيب + وصف الراحلة + مدح. فأصبح : تاريخ + مـدح + فخـــر.

أما المعاني المدحية فهي كما أسلفنا أقل غموضا من بقية مواقف الفزاري السياسية والمذهبية، فهو يعترف صراحة للفاطميين بالنسب الهاشمي العلوي

كريم المساعي والأيادي سمت بـــــه
أبوة صـــدق من ذؤابـة هـاشـــــم

له من إمام المرسليـــن وصنوهـــــــم
عليّ ، معـــال ثابتـــــات الدعائـــم (1)

بل يقدم على أكثر من ذلك حين يدعو عليّا صنو المرسلين، ولا يخفى بمـــا في تشبيهه علي بالأنبيـــاء من كفر عند أهل السنّة، والغريب إقدام الفزاري السني عليه ، إلا أن الأمر لا يقف عند هذا الحد فإذا هو يعترف للمنصور بالخلافة والامامة :

سأشكر آلاء الامام، ومن ينـــم
عن الشكر أو يسأم، فلست بسائـــــم
أبيت أمير المؤمنين ، سوى الـــــــــتي
يزيد سناء ذكرها في المـــواسم (2)

وقد ألح في أحد الأبيات على صفات الحلم والعفو والإمضاء عن الذنوب، والكرم وكأنه هنا يشكر المنصور على صفحه عن أهل القيروان وعنه هو، بعد خروجهم لقتال الفاطميين والوقوف إلى جانب أبي يزيد صاحب الحمار :

تقى ، وندى ما بين حلـــم ونجـــــدة
وعفوا وامضاء على كل ظالـــــــم (3)

كما تعرض ولكن في شيء من التحري والغموض إلى الفتنة الخارجية فأكتفى بالتنديد بالبغاة الطامعين :

وكذبت أطماع البغاة فأدبروا لاعقابهم ما بين خاز ونادم

---

1) الحوليات . العدد العاشـــر . محمد اليعلاوي . ص 134
2) المصـــدر السابـــق . ص 134
3) الحوليات . العدد العاشـــر . محمد اليعلاوي . ص 134

رجوا من فساد الملك ما عودتـــــــهم
أما نيهم ، والله ليس بنائـــــــــم (1)

وهذا الشعر أيا تكون قيمته الفنية ، يحمل الدليل على أن الفزاري لم يكن بمعزل عما يدور حوله من صراع سياسي ومذهبي وعلى أن الأدب في شعره ونثره لا يمكن إلا أن يكون صورة وصدى لحياة السياسة التي تحياها الدولة .

---

1) المصـــدر السابـــق . ص 134

المراجع

1) حوليات الجامعة التونسية – العدد العاشر : فصل بعنوان شعراء افريقيون معاصرون للدولة الفاطمية : محمد اليعلاوي .
2) مجمل تاريخ الأدب التونسي : ح. ح. عبد الوهاب .
3) فجر الإسلام : أحمد أمين .
4) البيان المغرب في أخبار المغرب : ابن عذاري المراكشي .
5) طبقات علماء افريقية وتونس لأبي العرب تميم القيرواني تحقيق وتقديم : علي الشابي ونعيم حسن اليافي .
6) صبح الأعشى : للقلقشندي .

منتخبات

القصيدة الرائية في هجاء بني عبيد (1)

تَلَفّع في مفَارِقه القَتِيـــــــر ... وقَوّس غُصنُهُ اللّدْنُ النّضيرُ
وليس يؤدب الانسان شـــيء ... كتأديب الحوادث إذ تدور
وانّ ببابك اللهُم عبْـــــــدًا ... من الخذلان أصبح يستجير
دعاك وقد رجاك فَصُنْـــه مِمـــا ... يحاذر ذو المراقبـــة الحذور
ولا تُسلمْهُ للدنيا فَتُهْـــوي ... به منها بُطون أو ظُهُـــور
سلامتها ، وإن دامت ، سقـــام ... ونعمتها، وإن دامت، غـــرور
ومرعاها لراغبها وخيـــــم ... وكثرتها لمكثرها يطيـــــر
تَسُر المرء يوما ثمّ تغـــدو ... فتسلب ما أتاح لـــه السرور
وإن واتتك اقبالا ونُعْمـــى ... فعُقباها الفجـــائع والقبـــور
وكل الخيـــر فيهـــا مستَعـــار ... وسوف يردُّ ذاك المستعيـــر
وإنّ عـــزيزها عمّا قليـــل ... ذليلٌ ، والغنيّ بهـــا فقيـــر
وكل مـــؤمّل أمـــلٌ طـــويـــل ... وعمر لو تؤمّلهُ قصيـــــر
وبعد الموت أهوال عِظَـــامٌ ... يشيب لبعضها الطفل الصغير
وتذْهلُ كل مُرْضعة لَكـــرب ... ليوم فيه شَرٌّ مستطيـــــر

---

1) الحرليـــات ع 10 ـــ 73 ـــ محمد البعلاوي ص 122 ـــ 123 ـــ 124

وبعد الموت للأرواح امّا ... نعيم في الكرامة أو سعير
عجبت لفتنة أعْمت وعمَّتْ ... يقومُ بها دعِيٌّ أو كَفُور
تَزَلْزَلَتِ المدائن والبوادي ... لها وتلونت منها الدهور
وضاقت كل أرض ذاتُ عرضٍ ... ولمْ تُغْنِ المعاقِلُ والقصور
فنجّى القيروان وساكنيها ... إلاه دافعٌ عنها قَدير
أحاط بأهلها عِلْمًا وخُبْرًا ... وميَّز ما أكَنَّتْهُ الصُّدُورُ
وجلَّلهم بعافية وأمْنٍ ... وأسْبِلَ فَوْقَها سِتْر ستير
وأنبت جلة العلماء فيها ... بحار لا تُعادِلُها بُحورُ
ومنها سادة العلماء قدما ... إذا عدوا وليس لهم نظير
وفيها القوم عُبَّاد خيار ... فقد طاب الاوائل والأخير
شعارهم التقى والخوف ليلا ... على أقدامهم غِيبٌ حضور
كأنهم لخوف الله موتى ... أقامهم إلى البعث النُّشور
بلاد حشْوُها علم وحلم ... واسلام ومعروف وخير
هم افتكوا سبايا كل أرض ... وفادَوا ماستبد به المُغير
كفيناهم عظمائمها جميعاً ... فزالت عنهم تلك الشرور
وسكنا قلوباً خافقات ... أمات عروقها ضر ضرير
وآوينا وواسينا وكنا ... لهم أهلا وأكثرهم شطير
فبات طعامنا لهم طعاما ... هناك ودورنا للقوم دور
وكان لنا ثواب الله ذخرا ... وقام لشكرنا منهم شكور
ولولا القيروان وساكنوها ... لغاب طعامهم والمُحُّ ريرُ
كأن القيروان وهم عراة ... حفاة ، محشر فيه المصير
فهل للقيروان وساكنيها ... عديل حين يفتخر الفخُور

عـراق الشرق بغداد وهـــذي ... عـراق الغـرب بينهما كثير
ولست أقيس بغـدادا إليهـــا ... وكيف تقاس بالسنة الشهور
بـــلاد تقصف العظماء قصفاً ... إذا ما رامها منهـم غـدور
بـــلاد خطها أصحـاب بـــدر ... وتلك اختط ساحتهـا أميـر
بناهـا المستجاب وقـد دعـا ... في جوانبها دعاء لا يبـور
بناها كل بدري كـريـــم ... كأن صفـا وجوههـم بدور
هـم صلوا بمسجدها بـــراحا ... وليس له جدار مستديـــر
وهم وضعـوا أسا متينـــا ... فقدّست المواضـع والصّخور
وقادهم الأذان إليه حـتـــى ... أضاءهم من المحـراب نور
ولم يسبقهـم ملـك ظلـوم ... لتأسيـس ولا ملـك كفور
وأصحاب النبي لـه بنـاةٌ ... فـلا عصيان فيـه ولا فجـور
أقـاموا شطـر قبلتها سويـا ... إلى البيت العتيق قلم يجـورو
وان عـراصـه لمقـدسات ... مبـاركة وتربتـه طهـور
بهـا حلـق العلوم لهـا دويٌ ... يجاوبهـا الكتاب المستنير
ألا أبلـغ معاشـر ليس عندي ... لهـم غدر ولا فيهم غدير
نحب صلاحهم وهم غضـاب ... علينا إن ذا جـور كبيـر
ضمائـرهم مِـراض واجمـات ... علينا لا أفاق لهم ضمير
ولا ذنب لنـا إلاّ لانـــا ... سلمنـا حيـن عمهمُ الثبور

هجاء بني عبيد

«ولأبي القاسم الفزاري أشعار كثيرة» في هجر بني عبيد منها :

عبدوا ملوكهم وظنوا أنهم نالوا بهم سبب النجاة عموما
وتمكن الشيطان من خطواتهم فأراهم عوج الضلال قويما
رغبوا عن الصديق والفاروق في
أحكامهم لا سلموا تسليما
واستبدلوا بهما ابن أسود نابحاً
وأبا عمارة واللعين تميما
تبعوا كلاب جهنم وتأخروا
عن أصارهم الالاهُ نجوما
يا ليت شعري من همُ ان حصلوا
دنيا، ومن هم ان عددت صميما ؟
أمن اليهود ؟ أم النصارى ؟ أم هم
دهرية جعلوا الحديث قديما ؟
أم هم من الصابين أم من عصبة
عبدوا النجوم وأكثروا التنجيما ؟
أم هم زنادقة معطلة رأوا أن لا عذاب غدا ولا تنعيما ؟
أم عصبة ثنوية قد عطلوا النورين عن ظلماتهم تعظيما ؟
من كل مذهب فرقة معلومة أخذوا بفرع وادّعوه أروما
سبحان من أبلى العباد بكفرهم وبشركهم حقباً وكان رحيما
يا رب فالعنهم ولسقّ لعينهم بأبي يزيد من العذاب أليما

رثاء أبي الفضل الممسيي

عليك أبا الفضل أنسياق دموعي
وشغلي بأنواع الأسى وولوعي
ونار ان : نار في المآقي من البكا
ونار من الاشجان بين ضلوعي
على طاهر الاخلاق مُبرإ
من السوء محمود بكل صنيع
أديب أريب ماجد متكرم
حليم وقور الجانبين بديع
على سنَّة الاسلام عاش كأنما
يقابله منها انفلاقُ صديع
مَنُوعٍ من الفحشاء والاثم نفسه
وليس لباغي فضله بمنوع
بنفسي صريع جالت الخيل حوله
بمعترك الأبطال أيُّ صريع
قضى نحبه بين الأسنة والظُبي
شهيدا مع العبّاد غير جزوع
وظلَّ إلى دار العلى متطلعا
يناجي إليها نفسه بطلوع

وضُمِّـخَ في مثـل الخلـوق بطعنـــة
كست صـدره المحمـود ثـوب نجيع
ومـد يمينـا كان معتمـدا بهـــا
لطـول سجـود أو لطـول ركـــوع
وقلب طـرفاً طالما بات ساهـــرا
بمحـرابه يُـذري وكيفَ دمـــوع
ومـا مـات حتى بُشِّـر الحـور باسمـه
وعاينـه في صحة وهجـــوع
وأشـرفـن من أعلى الجنان تشـوقـــا
ونادين فارتاح ارتياح سميـــع
ولـو قيـل : بـع بعض الذي نلت بالذي
تـركت لكان البعض غيـر مبيـع
ولست له أبكي ولكن لمعشـــر
أصيبـوا بـه من مفـرد وجميـع
وللفقـه والاسلام والدين والتقـــى
وطـول اجتمـاع واصطنـاع صنيـع
مضى عالم العلم الـرفيـع وطالمـــا
أصـابت قنـاة المـوت كل رفيـع
ولـولا التأسي بالنبـي محمـــد
وأعظـم بـه من أُسـوة لمـروع
وأصحابـه الاخيـار والسلف الأُلـــى
قضـوا نحبهـم من مـارع ومـروع

وعلـمي باكـرام الشهـادة نـالهـا
سـريعـاً إليها وهـو غيـر سـروع
بجيـش لـو ان المصطفى كان شاهـداً
لجاهـد فيـه الشـرك غيـر مُضيـع
لقـلّ عـزائي إثـره وتصبـري
وطـال بكائـي بعـده وخشـوعـي
سقى جدثا أضحى به الفضل ساكنـا
من المـزن خفـاق البـروق همـوع
ونالتـه منـا رحمة وتحيـة
على قـرب دار أو محـل شـوع
ألا ليت شعـري هـل أرى نـور وجهـه
بيـوم عصيب لـلأنـام جمـوع ؟
شفيعُـك فيـه يا أبا الفضل مـن لـه
غضبت رسـول الله خيـر شفيـع
أعـد لـك الله الكـرامـة والـرضـى
بأعلى محـل في الجنـان وسيـع
وجـازاك عـن ديـن النبي وهـديـه
جـزاء مـريـد للإلاه مطيـع
سأبكيـك حتى يقـرح الدمـع مقلتـي
ومـا ذاك ان طاولته بشنيـع
ويُخلـد ذكـرا منـك في كـل بلـدة
شعـر عجيـب للـرواة بـديـع

علي بن الإيادي

تمهيد

يقول المرحوم حسن حسني عبد الوهاب : «قضى المشرق فترة من الزمان منعكفاً على أبي نواس والبحتري والمتنبي ولا سيما المعري وابن سيناء ، وهم وإن كانوا بلا مراء من مفاخر الآداب العربية وأمجادها ، الا أنه لا يجوز أن يقتصر جهد الباحثين عليهم وان يفتنوا بآثارهم فتوناً ربما يحصر آفاق الشباب الناهض ويجعله قانعاً بذلك النصيب بينما يوجد لديهم خضم تلاطمت أمواجه وغمر عبابه الزاخر سواحل المشرق والمغرب على السواء .

ويذكر من هؤلاء الذين ظهروا في المغرب ابن رشيق ، وابن حزم، وعلي بن الايادي ، وابن هاني وغيرهم » .
ونظرنا ، فرأينا من هؤلاء علي بن الايسادي التسونسي الشاعر رأيناه في المغرب وفي القيروان بالذات يشبه البحتري في المشرق ولكنه لم يحظ بدراسة تكشف عن مكانته في الشعر ، وربما كان ذلك حظ أدباء المغرب العربي ونقاده وعلمائه بصفة عامة وربما يكون مرد ذلك كما يقول الأستاذ أحمد الشايب :

أن هذا الصقع الغربي من الوطن العربي قد أصيب بانقطاع الحلقات ، بخلاف المشرق فإن يقظة شعوبه ، وتوافر مصادره ، واتصال حياته منذ فجر التاريخ قد أعان على دراسة أعلامهوتتبع جهوده ... غير أنه مهما تكن الأسباب فإنها لا تبرر ترك قرون ثمانية في تاريخ الحضارة الأندلسية ، كانت تزهى بأدبها العربى وطابعها الاسلامي ... ولا ترك افريقية تشقى بالجدب والنسيان طوال هذه القرون وإلى عصرنا الحاضر (1) » .

وأيا كانت أسباب هذا الاهمـــال فإن افريقية والقيروان بخاصة كانت : «منذ الفتح إلى أن خربها الاعراب دار العلم بالمغرب ، إليها ينسب أكابر علمائه وإليها كانت رحلة أهله في طلب العلم ، وقد ألّف الناس فى اخبار القيروان ومناقبه ، وذكر علمائه ، ومن كان فيه من الزهاد والصالحين والمتبتلين كتباً مشهورة ككتاب أبي محمد بن عفيف ، وكتاب بن زيادة الله الطبني (2) » .

ولقد كان حسب الرجل أن ينتمي إلى القيروان حتى يعرف بالعلم والأدب ، وقد ذكرت كتب التراجم منهم من لا يتسع المقام لذكر أسمائهم ، وانما نشير الى واحد يعنينا في هذا البحث وهو علي بن الايادي التونسي . .

---

1) أصول النقد الأدبي .
2) المعجب في تخليص أخبار المغرب : الواحدي المراكشي .

حياته

اسمه ـ مولده :

ترجم له المرحوم حسن حسني عبد الوهاب فقال : علي بن محمد الايادي ، نشأ وتربى بمدينة تونس ، ثم التحق بخدمة الدولة العبيدية بالقيروان والمهدية ، وكان أشهر شاعر افريقي في مدة القائم بن المهدي وولده اسماعيل المنصور . وقد عمر طويلا ومات في أيام المعز لدين الله الفاطمي (1) وعلى هذا الأساس يكون شاعرنا قد عصر خلفاء بني عبيد الأربعة : المهدى والقائم والمنصور وأخيرا المعز (2) ...

أما عن مولده ونشأته فلا نعرف عنهما شيئاً سوى ما ذكره الدكتور محمد اليعلاوي (3) من أنه أصيل «المسيلة» حاضرة الزاب

---

1) معجم تاريخ الأدب التونسي لحسن حسني عبد الوهاب ص 96 .
2) المهدي عبيد الله أبو محمد) 297 ـ 322 هـ 909 ـ 934 م
القائم (محمد أبو القاسم) 322 ـ 334 هـ 934 ـ 945 م
3) الحوليات ع 10/73/ ص 97
المنصور (اسماعيل أبو طاهر) 334هـ 341 ـ 945 ـ 952 م .
المعز (أبو تميم) 341 ـ 365هـ ـ 952 ـ 975 م .

الجزائري. على الرغم من دعوته بالتونسي . ويضيف اليعلاوي بأن «إياد » التي ينسب إليها شاعرنا هي فرع من قبيلة «الاثبـــاج» التي كانت نازلة بجبال «المعـاضيـد» شمالي شط الحضنة والمسيلة . والاثباج ، مثل زغبة ورياح ، بطن من بني هلال» ويستنتج اليعلاوي ان الايادي مشترك بين الجزائـر وتـونس مثـل ابن هـانيء .

وفـاتـــه :

أما وفاته فقد أرخها ح. ح .عبد الوهاب بسنة 365هـ 976م ولكنه لم يذكر مكان وفاته . غير أن الدكتور محمد اليعـلاوي استنتج من عبارة ابن رشيق في «قراضة الذهب» ان الشاعـــر قد يكون توفي بالقاهرة حيث كان التحق بالمعز بعد أن لاقى في طريقه إليه الأهوال والصعاب (1)

1) نفس المصدر . ص 98

شعـــره

ومع إنا لم نقف له على ديوان مطبوع يضم شعره، فقد وقفنا على بعض انتاجه من الشعر، وجدناه فيما تناثر من كتاب زهر الآداب للحصري وفيما ذكرته كتب التراجم حين تعرضت له أو لتاريخ عصره أو لتاريخ معاصريه . وقد جمع من ذلك الشعر المنشور في مطاوي الكتب العلاّمة ح. ح. عبد الوهاب وذلك في كتابه «مجمل تاريخ الأدب التونسي».

ولكي نستبين شاعرية علي بن الايادي نسوق ما قاله ابن شرف عندما عرّف به «... شعره هو المورد العذب، ولفظه هو اللؤلؤ الرطب، وهو بحتري الغرب، يصف الحمام، فيروق الأنام، ويشبب فيعشق، ويحبب، ويمدح فيمنح أكثـــر ممـــا يمـــنـــح . . . (1) ».

وهذه الاشادة من ناقد حصيف تسجل لنـا عدة حقائـق :
1) جلّ شعر الايادي كان منتشرا في أواسط القرن الخامس هجري
2) تضمن هذا الشعر كثيرا من الاغراض كالمديح والغزل والوصف

---

1) رسائل الانتقاد ص : 22 ـــ تحقيق . ح. ح. عبد الوهاب .

3) براعة الايادي في فن الوصف حتى أنه يشبه بالبحتري
4) التمثل بالمشارقة وقد عدّ بعضهم ذلك ضرب من ضروب الشعور بالنقص والذي نقرره في هذا الصدد أن مطلع الثقافة العربية في مختلف فروعها إنما كان في شرق الدولة العربية ، فالشعر ، وعلوم اللسان وكذلك علوم الدين التي تفرعت عن القرآن والسنة كلها نبتت وأزدهرت في الجزيرة العربية وفيما جاورها من أقاليم ، تبعتها تبعية سياسية ، ثم كانت أن طارت هذه الثقافات على أجنحة العرب الفاتحين والمهاجرين إلى المغرب .

ولسنا ننكر أنّ قد قامت في المغرب مدارس ومذاهب ولكننا نستطيع أن نقول غير مجاوزين الحقيقة : أنه برغم امتداد السنين بالفاتحين والمهاجرين وبرغم استقرارهم في البلاد المغربية الجديدة وبرغم نشوء طبقات من المغاربة كان لهم حظ كبير من العلم والمعرفة ـ برغم ذلك كله ـ فإن أثر المشرق في المغرب ، وأثر المشارقة في المغاربة ظل قويا وقائما على طول المدى حتى ما نكاد نستبين أثر الاقليمية في نتاج هذا الجزء من الدولة الاسلامية اذ «لم تضع حدود الأقاليم حواجز أو فواصل في سبيل العلماء والأدباء والكتاب والشعراء » (1) .

وإنما بقي أولئك يقتفون أثر هؤلاء لأن المغلوب ـ كما يقول ابن خلدون ـ مولع أبدا بالاقتداء بالغالب في شعاره وزيه ونحلته وسائر أحواله وعوائده والسبب في ذلك أن النفس أبدا تعتقد الكمال

---

1) العربية ليوهان فك ص 168 ترجمة محمد عبد الله دراز

فيمن غلبها وانقادت لـــه ... وانظر ذلك في الأبناء مع آبائهـــم كيف تجدهم متشبهين بهم دائمـــا وما ذلك الا لاعتقادهـــم الكمـــال فيهـــــم . (1)

وأهل المشرق على الجملة أرسخ في صناعة تعليم العلـــم بل وفي سائـــر الصنائع حتى أنه ليظن كثير من رحالة أهـــل المغرب الى المشرق في طلب العلـــم ، أن عقولهم على الجملة أكمل من عقول أهل المغرب ، وأنهم أشد نباهة وأعظم كيساً بفطرتهم الأولى وان نفوسهم الناطقة أكمل بفطرتها من نفوس أهل المغرب (2) .

والحقيقة كما يقول ابن خلدون بعد الذي تقدم أن «ليس بين قطر المشرق والمغرب تفاوت بهذا المقدار الذي هو تفاوت في الحقيقة الواحدة (3) » وإنما تعلق المغرب بالمشرق تعلق الفرع بأصله أو تعلق اللاحق بالسابق والمتأخر بالمتقدم ، وهذه حقيقة يؤكدها تناقل المعارف وحملها من المشرق إلى الغرب وارتحال المتعلمين من المغرب الى المشرق ينهلون من موارده ليعودوا الى بلادهم فيجلسوا مجالس الأساتذة .

ونلفت النظار هنا إلى أن الغرب بوقوعه بين مشرق الدولـــة العربية وبين الأندلس طرفها الأقصى من المغرب قد تهيّأ له بذلك ما جعله محط العلماء من كل فج وصقع ، فهو على الطريق

---

1) المقدمة ص 164 .
2) المقدمة ص 483
3) المقدمة ص 483

بين طرفي الدولة، والراحلون من المشرق إلى الأندلس والآيبون من الأندلس إلى المشرق يمرون به وكثيرون منهم تعجبهم الحياة فيه فيحطون رحالهم حط اقامة حتى كانت للغرب بذلك كله حركة علمية لا تقل عن مثيلتها في الشرق . (1)

ولكن برغم مما كان يحاوله المغرب من منافسة المشرق وأن تكون له شخصيته المتميزة فإن علماءه وأدباءه وشعراءه ظلوا وهم يرون في المشرق وعلمائه وأدبائه الأب الروحي لهم، يتطلعون إليه تطلع الولد إلى أبيه والتلميذ إلى أستاذه ولا عجب في أن يتعلق الفرع بالأصل «ويأخذ الأدنى عن الأعلى» (2) .

وخلاصة هذا الترابط بين الشرق والغرب، مع نظرة الغرب إلى الشرق، أن هذا الجزء من الدولة العربية ظل ينتج ويكتب ويؤلف على غرار ما كانت الكتابة والتأليف في الشرق، ولم تختلف شخصية المغاربة عن المشارقة في أدبهم وعلومهم، اللهم الا اختلافاً يسيرا .

على أن ابن شرف حين يطلق على «علي بن الأيادي» لقب «بحتري الغرب» فانه عندنا لم يبالغ فما هو بأقل منه ولا شعره دون شعره، ومع ما في أيدينا من قلة الا أنها قلة تدل على أنه شعر يسمو بصاحبه إلى صفوف المجيدين من الشعراء، وسنعرض من قوله في الأغراض المختلفة ما يقوم شاهدا ودليلا على شاعريته .

---

1) ابن رشيق : عبد الرؤوف مخلوف
2) تيارات أدبية ص 127 : تأليف ابراهيم سلامة .

الوصف

إذا كان ابن رشيق يقول : «الشعر الا أقلّهُ راجع إلى الوصف ولا سبيل إلى حصره واستقصائه (1) » فانا نقول بأن الايادي قال في هذا الباب الكثير والمقطوعات التي وصلتنا تقوم شاهدا على براعته في تقليب المعاني وتوليد الصور فهذا وصفه لـ« دار البحر » وهو القصر الذي انشأه المنصور بن القائم بصبرة (المنصورية) سنة 337 هـ (2) وسمّي بالبحر لانه اشتمل في ارجائه على بركة عظيمة ذات قطرين :

ولما استطال المجد واستولت العلا
على النجم وامتد الرواق المروّق (3)
بنى قبّة للملك في وسط جنّة
لها منظر يزهى به الطرف مونق

---

1) العمدة .

2) ذكر المؤرخون أن المنصور العبيدي أنفق على إنشاء هذا القصر ثلا ثمائة الف دينار. ولم يبق اليوم من هذا القصر سوى أعمدة مرمرية متناهية الحجم ملقاة على وجه الأرض في المكان المعروف بهندي صبرة .

3) مجمل تاريخ الأدب التونسي ص : 97 .

بممشوقـــة (1) الساحات أما عـــراصهـــــا
فخضر وأما طيـــرها فهـــي نطـــــق
تحف بقصـــر ذي قصـــور كـــأنمـــــا
تـــرى البحر في أرجـــائـــه يتدفـــق
لـــه بركة للمـــاء مـــلء فضـــائـــــــه
تخب بقطريها العيون وتعنـــق (2)

ان أول ما نقع عليه في هذا الوصف أن الايادي دقيق الملاحظة دقيق التصوير، فهو لا يدع من المشهد شاردة أو واردة إلا ويأتي عليها فكأنما هو مكلف بأن يستنفد كل ما فيـــه .

إلا أن الايادي ليس دقيقاً ولا متقصيا فحسب وإنما مفصلا أشد التفصيل حتى ليساعد على تصور هيئة هذا القصر وأقسامه فالبركة مثلا يزودها نهـــر :

لها جـــدول ينصب فيها كأنـــــه
حسام جلاه القين بالأرض ملصق (3)

وقد أقيم في وسطها مجلس للهو أو للنزهة وتسريح العين :

لهـــا مجلس قد قام في وسط مائهـــا
كما قام في فيض الفرات الخورنق (4)

---

1) ممشوقة أي حسنة .
2) تخبّ : أي تعدو عدوا فسيحا ، وتعنق تسير بأمعان
3) جلاه القين : أي صقله الحداد
4) الخورنق : هو قصر عظيم على نهر الفرات

ان الايادي عدا وصفه للقصر وصفاً واقعياً فيه من الدقة والتفصيل الشيء الكثير وعدا استناده إلى مخيلة خصبة ساهمت في تجسيد المشهد حتى لهو واقع ماثل تحت الحواس ، نراه كسائر المغاربة يباهي المشارقة بهذا المعلم الحضاري ، فيشبهه بقصر المنذر بن ماء السماء ملك الحيرة بالعراق قبل الاسلام بل نراه اكثر من ذلك يشير لكن بصورة خفية لطيفة فيها كثير من اللباقة والعفوية إلى الصورة القرآنية في وصف القصر الذي بناه سليمان لبلقيس ملكة سبأ : «فلما رأته حسبته لجّة وكشفت عن ساقيها ، قال : انه صرح ممرد من قوارير» (النمل الآية 44) .

إلا أنه قلب التشبيه القرآني ، فاللجة هي التي أصبحت كالزجاج الأزرق :

كأن صفاء الماء فيها وحسنه زجاج صفت أرجاؤه فهو أزرق

ولنلاحظ أن الشاعر بالاضافة إلى الدقة يذهب إلى أبعد من الظاهر فيبدع للمشهد صورا بديعة غريبة : فإذا انعكست على الماء أضواء النجوم المتراقصة ، بدت كأنها لهيب يأكل سحنة الزنجي السوداء ، أما أشعة الشمس فتحدث فيها بريقا خلاّ باً كلآلىء تاج الأمير بيواقيته :

إذا بث فيها الليل أشخاص نجمه
رأيت وجوه الزّنج بالنار تحرق

وإن صافحتهـا الشمس لاحت كأنهـــا
فـــرند على تاج المعز ورونـــق (1)
كأن شرفات المقاصر حولها عذارى عليهن الملاء الممنطق

إنك حين تقرأ البيت الأخير تستقرىء ميزة أخرى مـن ميزات الايادي وهي المحافظة على الطاقة الإيحائية ، فالشاعـر يشعرنا بأن البركة محاطة بعدة غرف أو مقاصير ذات طوابق وشرفات ، وأن هذه الشرفات تكتنف ثغرة الغرفة أي بابها كما يكتنف الحزام قوام العذراء البيضاء .

ولئن بدأنا دراسة شعر علي بن الايادي بالوصف فلأنه أوسع أبوابـه ـ كمـا أسلفنا ـ ومواضيع وصفه تتنوع بتنوع الحياة وألوانها . فقد وصف فرسـا للأمير جعفر بن القائـم فإذا هو يتقصى الموصوف ليصفه بدقة ، وجاء وصفه بحق نوع من الغنائية يعبر بها عن عاطفة رقيقة وشعور بالجمال :

وأقب من لحق الجيـاد كأنه قصر تباعد ركنه عن ركنه(2)
وكأنما انفجر الصباح بوجهـه حسناً أو احتبس الظلام بمتنه
مستبطـر بالراكبين كأنـــه باز تروح به الجنوب لوكنه (3)

---

1) الفرند: السيف وجوهره ووشيه والمقصود منه هنا ، السناء البراق ، وقد كان الخلفاء العبيديون يلبسون في المواكب تيجاناً من الذهب وكللة باليواقيت والجواهر .
2) وأقب : متواصل السير ولاج في الهناة ، والقبب بالتحريك دقة الخصر وضمور البطن واللحق الضامرة أو السريعة .
3) مستبطر : مسرع ، ووكنه أي عشه .

حلو الصهيل تخال في لهواتـه حاد يصوغ بدائعا من لحنه
ذو نخوة شمخت بـه عن نـدّه وشهامة طمحت به عن قرنه
قد راح يحمل جعفر بن محمد حمل النسيم لوابل من مزنه (1)

ووصف أسطول القائم الفاطمي بالمهدية فإذا وصفه واقعي حسي لا يحتاج إلى امعان لفهمه :

أعجب لأسطول الإمام محمـد ولحسنه وزمانه المستغـرب
لبست به الأمواج أحسن منظر يبدو لعين الناظر المستعجب
من كل مشرفة على ما قابلـست اشراف صدر الأجدل المنتصب(2)
دهماء قد لبست ثياب تصنّـع تسبي العقول على ثياب ترهب
من كل أبيض في الهواء منشـر منها وأسحم في الخليج مغيّب(3)
كقوادم النسر المرفرف عريّت من كاسيات رياشه المتهدّب...
سَجَرُوا جواحم نارها فتقاذفـوا منها بألسن ما رح متلهب (4)
محفوفة بمجاذف مصفـوفـة في الجانبين دوين صلب صلّب
وتحثها أيدي الرجال إذا ونت بمصعد منه بعيـد مصوّب
جوفاء تحمل كوكبا في جوفها يوم الرهان وتستقل بمركب
يعلو بها حدب العباب مطـارة في كل لج زاخر مغلولب(5)

---

1) زهر الآداب للحصري ص 314 ومجمل تاريخ الأدب التونسي . ص 98
2) الأجدل : هو الصقر
3) أسحم : أسود
4) سَجَرُوا جواحم نارها : ملؤوها وقودا وهو يشير إلى النفط التي كانت تلقى على العدو في الحروب
5) مجمل تاريخ الأدب التونسي ص : 98 ــ 99

ولقد تميز الايادي بحبه الجمال، سعى إليه انى كان وعشقه في ابسط الموجودات فحتى الزهرة الضائعة بين ركام الأشواك تستهويه وتستوقف وجوده :

نـمّ بالروض خفق الريـــاح واقتدح الشرق زناد الصباح
وأخجل الورد شعـاع الضحى وابتسمت فيه ثغور الأقـاح
وقام في الدوح لنعي الدجـى حمـائم تطربنـا بالصيـاح
مذ ولد الصبح ومات الدجى صاحت فلم ندر غنى أم نواح(1)

ولا شك أن هذا التدقيق في الوصف إلى حـد الاهتمام بالجزئيات والخيال الخصب الذي يستمد صوره من الواقع والتماس النواحي الجمالية، والمحافظة على الطاقة الايحائية، يجعل من الايادي شاعرا من طراز الشعراء الوصافين كالبحتري وابن المعتز وغيرهما .

1) مجمل تاريخ الأدب التونسي ص : 101

الغـــزل

بيد أننا إذا قسناما وصلنا من شعر الايادي في الأغراض الأخرى بما وصلنا من مواضيع الوصف، الفيناه قليلا جدا، بل أقل من القليل، ففي باب الغزل مثلا لم نعثر له إلا على مقطوعة قصيرة، لكنها ـ رغم قصرها ـ تشهد له ببراعة فائقة. فهو في غزله كما رأيناه في الوصف عامة، كثير الصور الفنية يستند إلى خيال خصب، وعين نفاذة تطمح : أبدا إلى استجلاء المفاتن ولعلّ الطرافة في هذه المقطوعة تكمن في طرق معنى طيف الحبيب الذي يزور العاشق المسهد :

طيف يزورك من حبيب هاجر أهلا به وبطيفه من زائر (1)
شق الدجى وسرى فأمعن في السرى حتى ألمّ فبات بين محاجري

فقد كنى عن التسهيد باقامة الطيف بين المحاجر، أي في موضع العينين أو بين الجفون، كما شخص الطيف بتصوير قوامه الأهيف وعنقه الرقيق الطويل :

يحدو به هيف القوام المنثني نحوي، وسالفة الغزال النافر(2)

---

1) زهر الآداب للحصري . ص 703
2) المصدر السابق . ص 703

وهو تخيّل للحبيب المهاجر، إذ يجري الشاعر مفاضلة بين الحبيب وطيفه، فينسب إلى الطيف وفاء خلا منه قلب الحبيب، ورحمة للعاشق تمثلت في هذا الوصال المعوض عن هجر الحبيب

لله درّك من خيال واصل أسرى فأنصف من حبيب هاجر
علّلت غلة قلب صب هائم وقضيت ذمة فيض دمع قاطر(1)

إن أول ما يسترعي إهتمام الدارس لهذه المقطوعة أن غزل الايادي رقيق استمد رقته من حياة الحواضر الفاطمية، كمااستمدها بنوع أخصّ من ذوق الأيادي ومن رهافة حسه ورقة طبعه وتمكنه من استخدام الأجهزة اللغوية حسب مقتضى الحال.

ذلك هو أسلوب الأيادي في غزله، ووصفه، خاصة، ولا بد من الاشارة في النهاية إلى ناحية هامة من أسلوبه، وهي كيف كان يستخدم اللفظة، وما صلة الكلمة بالمعاني.

كان الايادي- كما أسلفنا - يستقصي المعاني حتى لا تفلت منها أية شاردة ويتعمقها حتى يلم بجزئياتها مهما كانت يسيرة.

وكانت الكلمة عنده ضرورية ضرورة المعنى، أي أنه يسعى إليها جادا لتؤدي معانيه على أتمها، فما يرضى بالكلمة القريبة من المعنى المراد بل هو يريدها مطابقة له دون زيادة أو نقصان. إذن ثمة إرتباط قوي بين المعنى واللفظ، لا يكتمل بدونه شعره.

---

1) زهر الآداب للحصري . ص 703

المديح

المديح عامة ثناء يسبغه الشاعر على ممدوحه، إما إعترافا بفضل أو طمعا في النوال. ولم يشذ عن هذه القاعدة من الشعراء إلا النادرون جدًا كأبي الطيب المتنبي في المشرق الذي كان يغني البطولة الماثلة في أعماقه، أكثر مما يغني الممدوح. وكابن هاني في المغرب الذي كان شاعر فكرة ودعوة.

أما شاعرنا الايادي الذي عاش في كنف القائم بن المهدي وولده اسماعيل أبو طاهر وبالتالي في أوج انتشار المذهب الشيعي بافريقية فإن ما وصلنا من مدائحه نراها «تخلو غالبا من الاشارات السياسية إلى أحقية الفاطميين بخلافة المسلمين، وإلى شرعية امامتهم ووجوب الولاء لهم، وهي المعاني التي تطفح بها مدائح ابن هاني للمعز العبيدي. ولعل هذا الاعتدال في الاشارات الشيعية ـ ان لم يكن ناتجا عن حذف من الرواة ـ هو الذي جعله مغمورا عند الفاطميين وطمس آثاره في كتبهم وحتى في كتب منافسيهم(1)

ولا نزعم أن كل مديح الايادي يخلو تماما من الاشارات السياسية فهذا هو، حين بويع المنصور خليفة سنة 334هـ ينطلق في

---

1) الحوليات ع 73/10 ص 99 : محمد اليعلاوي

مدحه وكأنه ملك من الملوك لا إماما ذا مذهب ودعوة وطموح إلى جمع كلمة المسلمين تحت رايته (1)

لقد سنّ اسماعيل سنّة جـــده لكل فصيح في البلاد وأعجم
وقُلد حقّ المسلمين بحقّـــه فتمت به النعمى على كل مسلم
مليك إذا سل السيوف عـلى العـــــدى
دجا الليل أو تُروى السيوف من الدّم (2)

بل انّا نراه في أعظم انتصار للفاطميين، وهو انتصارهم على ثورة صاحب الحمار الذي كاد يزعزع ملكهم، لا يولي اهتمامه إلا بالملك والثائر غير عابيء بقوى الصراع المتمثلة في مذهب الشيعة من جهة والاباضية من جهة أخرى :

فارتقى الملعون من خيفتـــه في ذرى أعيط عال مصعد
في ذرى خلقاء ملساء علـى ذلك المعقل ليست بصـــدد
معقـــل من فوقه الله ومـن تحته المنصور في جيش معد
فارتقى المنصور بالسيف لـه يوم طعن كشابيب البـــرد
واثقا بالله في غربتـــــه من بني أحمد ناء منفـرد

إلا ان أهمية القصيدة تتمثل في التصوير الجيد لنهاية صاحب الحمار وهي بهذا الاعتبار وثيقة تاريخية توضح الكيفية التي مات بها الثائر :

---

1) نفس المصدر ص 115 .
2) نفس المصدر ص 113 ــ 114 .

فنضا عنه أديما دنسا كان قد أسرف فيه ومردْ
كأديم التيس لما لم يطب ريحُه جُرّد منه فانجرد
وحشاه سالخوه سعفا مالئا بين كعوب وكتد
ثمّ رقاه على مستحصد باسق أجرد ما فيه أود (1)

ويبدو اعتدال الايادي في الاشارات السياسية في قصيدة أخرى مدح بها المنصور سنة 334 ه عندما خرج من قصره في عيد الفطر للصلاة بالناس. فلا نجد حديثا عن شرعية الإمام بلا نلاحظ أن المعاني التي اهتم بها الايادي هي رغد العيش في كنف المنصور فعبر عن هذه السعادة بصورة المرأة الحبلى بالمواعيد الطيبة وقد وضعت حملها، أي حققت الأماني (2) :

توسم صباح المجد من أين يشرق
وعرف الرضى والحلم من أين يعبق
ومثّل ـ على أن النجوم كثيرة بأي سراج تهتدي فتوفق
لقد صح للمرتاد ما كان يبتغي
وصاب له الغيث الذي كان يبرق
وقد كانت الأيام خرسا فأصبحت
لها ألسن بالشكر لله تنطق
فما بعد هذا للوسائل ملجأ ولا للمنى في غيره متعلق

1) الحوليات ع 73/10/ ص 102 : محمد اليعلاوي
2) الحوليات ع 73/10/ : محمد اليعلاوي . ص 107

فقد وضعت تلك المواعيد حملهـــــــا
تمـــاما وكانت قبل ذلك تطلـــــق(1)

هذا هو الأيادي في مديحه، مديح أبرز سماته الاعتدال، وخوفت نزعة التشيع، وفي هذا دليل على أن الأيادي لم يكن سوى شاعر بلاط.

على أنه رغم كل شيء، فان ما وصلنا من شعر الايادي على قلته في كل الأغراض التي استعرضناها يقوم برهانا بينا، وحجة ناصعة على شاعريته. ولو أنه وصل إلينا شعره كاملا لاستبان الناس فيه شاعرا يمكن أن يكون بين شعراء المغرب كما كان البحتري وابن الرومي وابن المعتز في المشـــرق.

---

1) الحوليات ع 79/17 : محمد اليعلاوي ص 51 .

المراجع

1 ــ رسائل الانتقاد ... ابن شرف . تحقيق ح. ح. عبد الوهاب
2 ــ العمدة ... ابن رشيق
3 ــ المقدمة ... ابن خلدون
4 ــ المعجب في تخليص أخبار المغرب ... الواحدي المراكشي
5 ــ زهر الآداب وثمر الألباب ... ابراهيم الحصري
6 ــ ابن رشيق ... عبد الرؤوف مخلوف
7 ــ أصول النقد الأدبي ... أحمد الشايب
8 ــ مجمل تاريخ الأدب التونسي ... حسن حسني عبد الوهاب
9 ــ العربية ... يوهان فك . ترجمة عبد الله دراز
10 ــ تيارات أدبية ... ابراهيم سلامة
11 ــ حوليات الجامعة التونسية ... ع . 73/10 فصل بعنوان: شعراء افريقيون معاصرون للدولة الفاطمية : محمد اليعلاوي
12 ــ حوليات الجامعة التونسية ... ع . 79/17/ فصل بعنوان شعراء افريقيون محمد اليعلاوي

منتخبات

وصف قصر

«ولمّـا اسْتَطَالَ ٱلْمجْدُ وٱسْتَوْلَتِ البُنَـى
على النَّجْمِ، وٱمْتَدَّ الرّواقُ المُرَوَّقُ (1)
«بنَى قُبَّةً لِلْمُلْكِ في وسْطِ جنَّـة
لهـا منظر يُزْهَى به الطَّـرْفُ مُـونـقُ
«بِمَمْشُوقَةِ السَّاحاتِ، أما عِـراصُهَـا
فَخُضْرٌ، وأمّـا طَيْرُهَا فَهْيَ نُطَّـقُ
«تَحُفُّ بِقَصْرٍ ذي قُصُور كَأنَّمـا
تَرى البحْر فِي أرْجائِهِ يتَـدَفَّـقُ
«لـه بِرْكَةٌ للماء مِـلْءُ فَضَـائِـهِ
تَخُبُّ بِقُطْرَيْهَا العُيُونُ وتَعْنَـقُ (2)
«لَهَـا جدْولٌ ينْصبُّ فيها كأنَّـه
حُسامٌ جلاَهُ القَيْـنُ بالأَرْض مُلْصـقُ
«لَهَا مجْلِسٌ قَدْ قَام فِي وسْطِ مـائِهَـا
كَمـا قَام فِي فَيْضِ الفُراتِ الخَـوْرنَـقُ

---

1) مروّق ؛ بيت مروّق ، له رواق
2) الخبب والعنق ضربان من سير الدواب .

كَـأنَّ صفَاء الماءِ فيها وحُسْنَـــــــهُ
زجـاجٌ صفَتْ أرْجـاؤه فهـــو أزرق
«إذَا بتَّ فيها اللَّيْلُ أشْخَاص نَجْمِـــــهِ
رأيْتَ وُجُوه الزَّنْجِ بالنَّارِ تُحْـــــــرقُ
«وإنْ صافَحتْهَا الشَّمْسُ لاَحتْ كَأنَّهَـــا
فِرِنْـدٌ على تاج المُعِـزِّ ورَوْنَـــــقُ
«كأنَّ شَرافَاتِ المقَاصِرِ حـوْلَهَـــــــا
عسذَارى علَيْهِنَّ المُلاَءُ المُمنْطَـــــقُ
«يذُوبُ الجُفَاءُ الجعْدُ عن وجه مائهـــا
كما ذاب آلُ الصَّحْصحانِ المرقرِقُ . .»(1)

---

1) الآل : السراب ، / والصحصحان : الارض الجرداء الملساء والجفاء الزبد المتراكم

وصف اسطول

أعْجِبْ لأسطُولِ الإمامِ مُحمَّـــــــــد
ولِحُسْنِهِ وزَمـانِـهِ الْمُسْتَعْـــــذَبِ
لَبِستْ بِـهِ الأمْواجُ أحْسنَ منظـــــر
يبــدو لعين النَّاظر الْمُتَعجِّـــــــب
من كلِّ مُشْرِفَةٍ علىَ ما قَابلَـــــــتْ
إشرافَ صدرِ الأجْدَلِ المتنصِّـــــبِ
دَهْماءُ قَدْ لَبِستْ ثِياب تَصنُّـــــــعٍ
تسْبِي العقولَ على ثيــاب تَـرهُّـــبِ
مسنْ كُلِّ أبيــضَ في الهَواءِ مُنَشَّـــرٍ
منها، وأسْحـم فِي الْخَلِيج مُغَيَّـــبِ
كَمُلاَّءةٍفي البرّ يقْطَعُ شَـــدُّهَـــــا
فِـي البحْرِ أنْفَاس الرِّيــاح الشُّـــذَّب
محْفُوفَـةٌ بمجـادفٍ مصْفُـوفَـــــــة
فـي جانِبيْـنِ دُوِيْنَ صُلْـبٍ صُلَّـــبِ
كَقَوادِمِ النَّسْرِ المُرفْرفِ عُـرِّيـــــتْ
مـن كَاسِياتِ رِيـاشِـهِ المُتَهَـــدِّبِ

تَحْتَشُّهَا أَيْدِي الرِّجالِ إذا ونَـــتْ
بِمُصَعَّـــدٍ مِنْهُ بُعَيْـــدَ مُصَـــوَّبِ
خرقـاءُ تَذْهَبُ إنْ يدٌ لَمْ تَهْدِهَـــا
فِـي كُـلِّ أَوْبٍ لِلـرِّيـاحِ ومـذْهَـبِ
جوْفَاءُ تَحْمِلُ موْكبا فِي جوْفِهَـــا
يوْمَ الرِّهَـانِ وتَسْتَقِلُّ بِموْكِـــبِ
ولَهَـا جنَاحٌ يُسْتَعارُ يُطِيـرُهَـــا
طَـوْعَ الـرِّيـاحِ وراحـةِ المُتَطَـرِّبِ
يعْلُـو بِهَا حدَب العُبـابِ مُطَـــارةً
فِـي كُلِّ لُـجٍّ زَاخِـــرٍ مُغْلَوْلِـــبِ
تَسْمُـو بِأَجْرَدَ فِي ٱلْهَواءِ مُتَـــوِّجٍ
عُرْيَـانَ منْسُوجِ الذَّوائِبِ شَوْذَبِ (1)
يتَنَزَّلُ الملاَّحُ مِنْـهُ ذُؤَابَـــةً
لَـوْرام يـرْكَبُهَـــا الْقَطَا لَمْ يرْكَبِ
فَكَأَنَّما رام ٱسْتِراقَـــةَ مقْعَـــدٍ
لِلسَّمْعِ إلاَّ أَنَّـــهُ لَمْ يُشْهَـــبِ
وكَـأَنَّمـا جِـنُّ ابْنِ دَاوُدٍ هُـــمُ
رَكِبُـوا جوانِبهَـا بِأَعْنَفِ مـرْكَـبِ
سجـرُوا جواحِم نَارِهَـا فَتَقَاذَفُـــوا
مِنْهَـا بِأَلْسُنِ مـارِجٍ مُتَلَهِّـــبِ (2)

---

1) الشوذب من الرجال : الطويل الحسن الخلق
2) سجر : ملأت الجاحم : الحجر الشديد الاشتعال

مِنْ كُـلِّ مسْجُـورِ الحرِيقِ إذَا انبـــرى
مِن سِجْنِهِ انْصلَت انْصِلاَتَ الكَوْكَبِ(1)
عُرْيانُ يقْدُمُهُ الدُّخَـانُ كـأنــــــه
صُبْـحٌ يكُرُّ عـلىَ الظَّـــلاَمِ الغَيْهَـبِ
ولَواحِقٍ مِثْلِ الأَهِلَّةِ جُنَّـــــــــحٍ
لُحُـقِ الْمطَـالِبِ فَائِتَاتِ المهْـــــربِ
يذْهَبْـنَ فِيمَا بيْنَهُنَّ لَطَـافَـــــــةً
ويجلـنَ فِعْلَ الطَّـائِـرِ الْمُتَغَلِّـــبِ
كَنَضَائِضِ الْحيَّاتِ رُحْنَ لَواعِبًـــــا
حتَّى يقَعْـنَ بِبِـرْكِ مـاءِ المِيـــزَبِ
شَـرعُـوا جوانِبهَا مجادِفَ أَتْعبـــتْ
شَـأْو الـرِّيـاح لها ولَمَّـا تَتْعـــبِ
تَنْصـاعُ مِنْ كَثَبٍ كَما نَفَر القَطَـــا
طَـوْرًا وتَجْتَمِعُ اجْتِمـاع الرَّبْـــربِ
والْبحْرُ يجمـعُ بيْنَهَا فَكَـأنَّـــــهُ
لَيْـلٌ يُقَرِّبُ عقْربًـا مِـنْ عقْـــــربِ
وعـلىَ مراكِبِهَـا أُسُـودَ خِـلاَفَـــــة
تَخْتَـالُ فِـي عُـــدَدَ السِّلاَحِ المُذْهَبِ
فَكَأَنَّمـا البحْرُ اسْتَعار بِـزِيِّهِـــــم
ثَـوْبَ الجمالِ مِنَ الرَّبِيـعِ المُعْجِـبِ

---

1) انصلت : مضى

وصف جواد

وأَقَبُّ مِنْ لُحُقِ الجيـــادِ كَـأَنَّـــــهُ
قَصْـــرٌ تَباعدَ رُكْنُـهُ عـنْ رُكْنِـــهِ (1)
لَبِستْ قَوائِمُـهُ عصائِب فِضَّـــــــةٍ
وغَدَتْ بِسُمْـرٍ صَفَا المسِيلِ ودُكنِـــهِ
وكَـأَنَّما انْفَجـر الصَّباحُ بِوجْهِـــــهِ
حُسْنًـا أَوِ احْتَبـس الظَّـلامُ بِمتْنِـهِ
قيـدُ العُيـون إذا بَصُرْنَ بِشَخْصِـــــهِ
ورِضَـــا القُلُوبِ إذا اصْطَلَيْـنَ بِضِغْنِهِ
مُتَسيْطِـرٌ بِـالرَّاكِبِيـنَ كَـأَنَّـــــهُ
بـازٍ تَـرُوحُ بِهِ الجنُوبُ لِـوَكْنِـهِ (2)
يستـوقف اللَّحظَات فـي خَطَـرانـــه
بِكَمالِ خلْقَته ودقَّـة حُسْنِـــــــهِ
حُلْو الصَّهِيلِ تَخَـال فِي لَهَواتِـــــهِ
حـادٍ يصُـوغُ بدائِعًـا مِنْ لَحْنِـــهِ

---

1) الأقب من الخيل : الضامر البطن ــ لحق : ضمر
2) الوكن : عش الطائر

مُتَجَبِّرٌ يُنْبِي بِعِتْقِ نِجَارِهِ
إِشْرافَ كَاهِلِهِ ودِقَّةُ أُذْنِهِ (1)
ذُو نَخْوَةٍ شَمَخَتْ بِهِ عنْ نِدِّهِ
وشَهَامَةٍ طَمَحَتْ بِهِ عنْ قِرْنِهِ
وكَأَنَّهُ فُلْكٌ إِذَا حَرَّكْتَهُ
جَارٍ علَى سَهْلِ الْبِلَادِ وحَزْنِهِ
قد راح يَحْمِلُ جَعْفَرَ بْنَ مُحَمَّدٍ
حَمْلَ النَّسِيمِ لِوابِلٍ مِنْ مُزْنِهِ

1) عتق النجار : كرم العنصر .

وصف زهرية

نَـمَّ بِالرَّوْضِ خَفْـقُ الرِّيـــــاحْ
واقْتَـدَح الشَّرْقُ زِنَـادَ الصَّبـــاحْ
وأَخْجـلَ الوَرْدُ شُعـاع الضُّحـــى
وابْتَسمـتْ فِيهِ ثُغُورُ الأَقَـــاحْ
وقَـام فِي الـدَّوْحِ لِنَعْيِ الدُّجـــى
حمـائِمُ تُطْـرِبُنَـا بِالصِّيـــاحْ
مُـذْ وُلِـد الصُّبْـحُ ومات الدُّجـــى
صـاحتْ فَلَمْ نَدْرِ غِنًى أَمْ نُـــواحْ
ويـوْمٍ دجْنٍ حُجبتْ شَمْسُـــهُ
وأَشْرقَـتْ فِـي لَيْلِـهِ شَمْسُ راحْ
فَمـا ظَنَّنَـا الصّبـح إلاَّ دُجًـــى
ولا حسبنَـا اللَّيْـلَ إلاَّ صبـــاحْ

طيف الحبيب

طَيْفٌ يزُورُكَ مِنْ حبِيبٍ هَـاجِـــــرِ
أَهْـــلاً بِـهِ وبِطَيْفِهِ مِنْ زَائِـــــرِ
شَقَّ الدُّجى وسرى فَأَمْعنَ فِي السُّـــرى
حتَّى أَلَمَّ فَبـاتَ بيْنَ محـاجِـــرِي
يحْـدُو بِهِ هَيفُ القَوام المُثْنَنِـــــي
نَحْـوِي وسالِفَةُ الغَزَالِ النَّـافِـــرِ
للهِ دَرُّكَ مِـــنْ خَيـــالٍ واصِـــلٍ
أَسْرى فَـانْصفَ مِنْ حبِيبٍ هَـاجِـرِ
علَّلْتَ عِلَّةَ قَلـبِ صبّ هَـائِـــم
وقَضَيْتَ ذِمَّـةَ فَيْضِ دَمْـعٍ قَـاطِـرِ

مقتل صاحب الحمار

«فارتقى الملعون من خيفَتِهِ ... في ذُرى أعْيطَ عالٍ مُصَّعِدْ (1)
«في ذُرى خَلقاء ملساء على ... ذلك المعقِل ليست بِصدَدْ (2)
«معقِل من فوقه الله ومن ... تحته المنصورُ في جيش معدْ
«فارتقى المنصور بالسّيف له ... يومُ طعن كِشَابِيبِ البردْ
«واثقا بالله في غُرْبتِهِ ... من بني أحْمدَ ناء مُنْفَرِدْ
«فإذا مخْلَدٌ في كَفِّ الرّدى ... مُوثَقُ الجِيدِ بِحبْلٍ مِنْ مسدْ
«قد رمته الحرب عن غاربها ... واهي الرّكن ذليل المُسْتَنَدْ
«كَنَفِيضٍ أخرجته أمه ... ليس إلا نَبْضَ عِرْقٍ وجسدْ
«فأوى من كَرم المنصور في ... كَنَفٍ رحْبٍ وخَفْضٍ ورغَدْ
«طَلَبًا منه لتبقى روحه ... وبقاء الرّوح أشفى للكمد
«فأبى الله سوى إعْجالِهِ ... وعذابُ الله للجسم أهَدْ
«فَنَضَا عنه أديما دَنِسًا ... كان قد أسْرفَ فيه ومردْ
«كأديم التِّيسِ لمّا لم يطِبْ ... ريحُهُ جُرِّدَ منه فَانْجردْ
«وحشَاهُ سالخوه سعفًا ... مالئا بين كُعوب وكَتَدْ
«ثُمَّ رقّاهُ علىَ مُسْتَحْصِدٍ ... باسق أجْرَدَ ما فيه أوَدْ» (3)

---

1) القصر الأعيط هو الشامخ المنيف .
2) الخلقاء : المستوية الجبين ولعله يعني صعوبة الصعود إليها . وليست بصدد قد تعني ليست بقريبة المنال .
3) نقلا عن حوليات الجامعة التونسية . ع 73/10 : شعراء افريقيون : محمد اليعلاوي ، ص 102

مدح المنصور (1)

أعلن القائم ولاية العهد لابنه اسماعيل المنصور «لسبع خلون من رمضان سنة 334 ... وكان المنصور يومئذ بلغ ثلاثا وثلاثين سنة».

وفي عيد الفطر (من سنة 334) خرج المنصور للصلاة من قصره إلى المصلّى، فصلى صلاة العيد وقام خطيبا ...»

وقال (علي الايادي) في ذلك:

تَوسَّمْ صباح المجدِ من أين يُشرق
وعرْفَ الرضى والحِلم من أين يعبقُ
ومثِّلْ - على أنَّ النجوم كثيرة
بأيِّ سِراج تهتدي فَتُوفَّقُ
لقد صحَّ للمرتاد ما كان يبتغي
وصاب له الغيثُ الذي كان يُبرقُ
وقد كانت الأيَّام خُرسا فأصبحت
لها ألسُن بالشكر لله تنطِقُ

1) نقلا عن الحوليات ع 79/71 - شعراء افريقيون : محمد اليعلاوي. ص 51 - 52 -

فما بعد هذا للوسائـل ملجـأ ولا للمنى في غيره متعلَّـق
تليـق باسماعيل نائـرةُ العـــــلا
ويغـــدو بها من غيـره وهـو أليـــق
أميـن تَمنَّتْهُ الرئاسـةُ مذ نشـــــأ
تتـــوق إلى أخـلاقـه وتَشَـــــوَّقُ
وكانت عيـون الأمـــر من شَغَف بـــه
على رِقبـة تـرنـو إليـه وتُطبـــــقُ

تـرى غُـرَّةَ الميعـادِ وهي جليـــــةٌ
تَخُبُّ إلى الميقـات فيه وتَنْطَـــــقُ
وطلعـةَ وجْـهٍ أكمل اللـــهُ نورهَـــا
يكـاد لهـا ضـوءُ النواظر يُـرهَـــقُ
وأخلاق مخلـوق مـن البِـرّ والتقـــى
أَظـنُّ الرضـى والحِلم منهـنَّ يُخلَـق

فقـد وضعت تلك المـواعيدُ حملهـا
تمـاما وكانت قبل ذلك تُطلَـــقُ
شهِـدتُ بـأنَّ الله بالغيـب عـالَـــمٌ
وأنَّ أميـر المـؤمنيـن مـوفَّـــق
رأى نجلَـه من نعمـة الله عنـــده
يُحـاذيـه في أحكـامـه فتُصـدِّق
عليـه دَلِيـلٌ من تقـاهُ وشـاهِـــدٌ
يلـوح ونـورٌ من عُلاه ورونَـــق

فـأبـرزه فينـا لكـلِّ مُلمَّـــــــة
تُنَـــاطُ بـه الامـالُ منَّـا فَتَنْلَـــقُ
ولمَّـا استهلَّـتْ بالفـواضِلِ كفُّـــه
تَيقَّـنَ بـاغي الرّزق من أين يُـــرزَقُ
مـالت أمـانيُّ النفـوس بأسـرهـــا
إليـه ، فباتت في ذُراه تُحقَّـــــق
فيـا صفـوةَ الله المقدَّسـةَ الَّتـــي
تُصبِّـحُ منَّـا بالصـلاة وتَغبُـــق
إليـك شكـونا من أذى برْبـريَّـــة
نكـاد لها لـولاً ولائِـك نفـــرُق
وهـذا بصُنـع الله فيـك يصُوننـــا
ونحـنُ بـه في نَيْـلِ رِفْدِك أرفـــق

مدح المنصور

أمـا والقَنَا الظَمـآنِ حِلْفَةَ مُغْـرمٍ
وجُـرْدِ المذَاكِي والصَّفِيحِ المُقَـوَّمِ (1)
وشَهْبـاء مِنْ نَسْـجِ الحدِيدِ كَأَنَّمـا
تُكَلِّلُـهُ تَحْـتَ العجـاجِ بِـأنْجُـمِ
مُسَوَّمـةً راحتْ رواحًـا وأَرْبحـتْ
لإِدْراكِ ثَـأرٍ أَوْ لاحْـرازِ مغْنَـمِ
لَقَدْ سـنَّ اسْماعِيلُ سُنَّـةَ جـدِّهِ
لِكُـلِّ فَصِيـحٍ فِي البِلاَدِ وأَعْجَـمِ
وقَلَّـدَ حقَّ الْمُسْلِمِيـنَ بِحقِّـهِ
فَتَمَّـتْ بِـهِ النُّعْمـى علىَ كُلِّ مُسْلِـمِ
وكَـانَ بِحمْـدِ اللهِ أَمْنًـا لِخَـائِـفٍ
وعِـزًّا لِمغْلُوبٍ وغَيْثًـا لِمُعْـدِمِ
فَيـا بهْجـةَ الدُّنْيـا بِأَيَّامِهِ ابْهَجِـي
ويـا بيْضَـةَ الْمُلْكِ اسْلَمِي ثُمَّ اسْلَمِـي

---

1) نقلا عن الحوليات ع 73/10 ـ شعراء افريقيون : محمد اليعلاوي . ص ـ 113 ـ 114

ويـــا جمْرةَ ٱلحرْبِ العوانِ قَدِ انْبـــــرى
لَكِ البحْـرُ زَهْوًا فَاخْمُدِي أَوْ تَضَرَّمِـي
وقَـدْ قَام بِالدُّنْيا وبِالدِّينِ فَاسْتَـــوتْ
أُمـورُهُمـا مِنْ هَـاشِمٍ خَيْرُ قَيِّـــــمِ
مِـنَ ٱلْفَاطِمِيينَ الَّذِينَ إِذَا انْتَمَـــــوْا
إِلَى المجْدِ غَطَّى رأسهُ كُلُّ مُنْتَـــــم
ملِيـــكٌ إِذَا سلَّ السُّيُوفَ علَى العِـــــدَى
دَجـا اللَّيْلُ أَوْ تُرْوى السُّيُوفُ من الـدم
بدِيهَتُـــهُ فِينَا كَفِكْرةِ غَيْـــــــرِهِ
إِذَا هُـو أَمْضَى الأَمْر لَمْ يتَنَـــــــدَّمِ
فَنِعْم مـلاَذُ المُسْلِمِينَ وكَهْفُهُـــــــمْ
إِذَا مـا خُطُوبُ الدَّهْرِ جـاءتْ بِصيْلَـم
ونِعْـم خَطِيبُ النَّاسِ فِي كُلِّ فَيْصـــلٍ
إِذَا الخَطْـبُ فِيـهِ سُـدَّ بابُ التَّكَلُّـمِ.

طبع بمصنع الكتاب
للشركة التونسية للتوزيع
5 شارع قرطاج — تونس
219/7/82
ديسمبر 1982

صدر في هذه السلسلة

1- ابن هانيء : احمد فالد
2- ابن الرومي : احمد فالد
3- تميم بن المعز : عبد المجيد عطيّة
عبد الرزاق الحليوي
4- الطاهر الحداد : جعفر ماجد
5- ابن زيدون : الطيب العشاش
جعفر ماجد
6- ابراهيم الحصري : عبد الجبار الشريف
علي دب

الطبعة الأولى - ديسمبر 1982 - سحب من هذا الكتاب 3.000 نسخة

الشركة التونسية للتوزيع
5 شارع قرطاج - تونس

السعر : 1،200 د.ت
أو ما يعادله

To: www.al-mostafa.com